مجموعة قصصية

شيء يشبه الهمس

عقيلة آل حريز

Aqeela Al Huriz





عقيلة آل حريز

شيئ يشبه الهمس

مجموعة قصصية





عقيلة آل حريز

شيئ يشبه الهمس

مجموعة قصصية

لوحة الغلاف: علا الصفار



النادي الأدبي في منطقة الباحة
المملكة العربية السعودية
www.adbialbaha.com



ص.ب. 113/5752
E-mail: arabdiffiusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت ـ لبنان
هاتف: 9611-659148 فاكس: 9611-659150

ISBN 978-614-404-328-8

الطبعة الأولى 2012

همسات..

الإهداء..

لعلها أصغر من السماء يا غالية..

تلك الكلمات البسيطة التي نخبئ بداخلها مشاعرنا..
وكل تجاربنا وأفكارنا..

فتحملنا للتعبير عنها بحروف متسلسلة تنطق بفكرة ما.. تحكي عن بعض ما أفضت به الحياة لنا، أو علينا..

ليست كثيرة.. حروفي.. لكنها كل ما أملك..

ليتها جديرة بقبولك لها..

ليتها طوق أعقد به لك أمنية صغيرة

فأعلّقها في نتفة غيمة بيضاء تسافر في فضاء بلا قيد..
لتحكي أمنياتك للسماء..

علّها تتحقق..

فلا شيء يصعد للسماء ويرجع لنا بالخيبة..

أختي وغادة قلبي... «أماني»..

لك شيء يشبه الهمس.. وكثير من الحب..

يخبّئه القلب ويعلنه..

عقيلة آل حريز

1433هـ

رشيق هذا المطر إذا جاءنا..

يعرف تمامًا أين يلامس فجواتنا
فيملؤها بنداه

يفلح أن يوقظ الحنين بداخلنا..

ففي تفاصيله خفايا تعلّقنا بين
السماء والأرض..

تطهرنا لنقاوم أكوام الوجع..

أُحبّ المطر..

كنت أقف هذا الصباح قرب النافذة، أبحث عن المطر.. أفتش عنه بين الغيمات الشاردة.. لم يأتنا هذا العام غزيرًا ولا متواصلًا.. افتقدناه.. حتى قرّر مباغتتنا فجأة.. آه، أحبّ المطر.. يُطربني صوته وهو يطرق نافذتي.. يخبرني أنه جاء.. يهطل من تلك الغيمات المتعلقة بسقف السماء.. كان يوشوشني بأسرار خاصة، يغريني لألحق به.. انتصفت ظهر بيتنا لأستظل بالسماء فلي حكاية خاصة مع المطر ومع مساءاته المختلفة..

أحبّ مراقبته.. المشي تحته بلا مظلة لا لكي أبتلّ.. بل لأني أجد نفسي في المطر، أبدو كمن يبحث عن أغنية قديمة أضاعها فيه.. أقف مليًّا أتأمله يغسل الحياة فينسيني الضجر.. قادر هو على بعث الحياة بداخل النفوس الميتة.. غريب أمر هذا الشتاء.. يجيئنا ببخل لم نعهده، يخبّئ غيماته بعيدًا عن وجه الأرض، يأتي وفي وجهه اكفهرار ما.. يتجاوزنا سريعًا بعد مرور مفروض وكأنه لا يرغب بالمكوث الطويل.. وأخيرًا، يقطرنا بملل..

لليوم التالي واصل هطوله.. كان مغدقًا بسحاباته.. هذه المرة لم يكن زائرًا خفيفًا جاءنا على استحياء.. قطراته

كانت جريئة. . تك، تك، تك. . ليس قلبي من خفق. . كان هذا صوته حين طرقني. . . كان عليّ إيصال حقيبة لإحدى رفيقاتي، ارتديت عباءتي على عجل وخرجت سريعًا. . الشوارع بدأت تبتل تمامًا، أما رفيقتي «راوية» فاستقبلتني كسولة كعادتها، واتتني فكرة للخروج، فطلبت منها أن نخرج الآن. .

قالت متعجبة: الآن، وفي هذا الجو الماطر!

قلت: ولِمَ لا، سنبقى في السيارة، لن يصيبك البلل، ومن ثم، أنا أتمنى عليك أن تفعلي «راوية» (بليز)، نطقتها كرجاء، لم أمهلها لتفكر بعد أن بدت مستسلمة لرغبتي، أردتُ الخروج سريعًا قبل أن تغيّر رأيها، وفي الطريق كنت أتحدث عن هذا المطر، أمارس الحياة من خلاله. .

قلت لها: تخيّلي ماذا لو أننا وجدنا أنفسنا نحيا بلا مطر، ماذا لو كنا متيقنين من أنه لن يكون وأننا لن نحتاجه، فلنفترض أن الأرض اكتفت بنفسها عنه، وتوقف هو. . .

تابعتني بدهشة لتعلّق على أفكاري بما يشي بالسخرية:

- (واااو). . !!

ضحكت منها لأكمل: أليس مخيفًا ومرعبًا هذا الشعور. . لن تتخيليه طبعًا، رغم أنه لا يزورنا في غير النادر، إلا أننا سنشعر بالتضاؤل حين يكفّ عنا. . نحن الشعوب المناخية الجافة، وربما يدفعنا الأمر لممارسة الجنون بحثًا عن قُبَل السماء. .

التفت لها: أوَ تدركين معنى أن لا تتصل السماء بالأرض، فنُحرم من مواصلة الحياة!

عقدت حاجبيها لتجيبني... يا للجنون طبعًا...!!

قلت: المطر فرصة للتمحور حول الذات للتقوقع لروية الداخل من خلال الخارج.. للاغتسال مما يعلق بنا، ألا ترين أن الأرض تصبح أكثر نضارة بعد هطوله.. هل تذكرين معي حين كنا صغارًا نلهو في مساحات الحياة ننطلق بعفويتنا فيها، كيف نتراكض في مساحاته الشاردة حفاة.. وربما نتزحلق على الأرض، نمتلئ بالطين وتتسخ ملابسنا فنوبخ.. لكننا كنا نستمتع بلهونا.. كبرنا فحجزنا أنفسنا في عالم الكبار وظلت الطفولة تهاتفنا من الداخل تلمس بأمنياتها حلم يراودها للعودة فلا نستجيب.

ردّت بملل: إيه ذاك الجنون كان يمارس في الصغر.. الآن الوضع أصبح مختلفًا.

انتفضت لأجيبها بدهشة تصبغها ملامحي: جنون!!... أترين الأمر جنونًا..!؟

بالنسبة لي، أرى الأمر مختلفًا، إنه قمة الانطلاق والتحرر من قيود تكبّلنا... فلن يمنعني العمر من ممارسة جنوني كما تقولين.

ضحكت بعفوية وقالت: أنت كبيرة وتقبلين على الجنون!.. أوَ ستفعلين حقًّا!؟. لم أجب ضحكت منها مجددًا واستوقفت السائق.. كنا قريبين من البحر.. وفجأة دفعتها للنزول. قلت لها: هيا انزلي، هذه فرصتنا..

قالت بدهشة: أتمارسين نوعًا من جنونك عندي!..

ضحكت ولم أمهلها، خرجت من السيارة وسرت باتجاه البحر قطعت مسافة طويلة، ابتعد صوتها عني وتلاشى تمامًا وهي تصفني بالعناد.. لم أهتم.. فنداءات المطر تتوالى فوق رأسي... عانقت المطر.. تبلّلت تمامًا.. كان هو الآخر يهطل بقوة.. بغزارة.... شعرت بعباءتي تلتصق بي. وجهي مددته للسماء.. تجلّى لي ضباب وضوء وتقافزت حبات المطر تصافحني.

مطر معتدل.. ليس ساخطًا ولا حادًّا.. يغريك بالمكوث معه مدة أطول... ربما نسيت رفيقتي وغيابي عنها... المكان خالٍ لا أحد يتواجد في جو كهذا، الكل يتوارى منه، أما أنا فيغريني بالبقاء في الخارج.. فكرت بغرابة تلك الأشياء التي لا تلتصق بي، لكنها قادرة على محاصرة أفكاري بها فتتجمع كأكوام من القلق تسيّجني بالحزن.

تقترب مني «راوية» وهي تغطي رأسها بكيس من البلاستيك:

- أيتها العنيدة لا أحد هنا فارجعي.. صرت أقرّ أنك مجنونة...

أضحك أنا فتتلفت حولها.. تقول بهدوء: حسنًا عودي ولتنسي كلامي السابق.. وسأعترف لك بأن الجنون عبادة نمارسها في كل الأوقات وأنتِ أكثر النساك عبادة...

أتجاهل كلماتها.. ابتسم.. أنشر لها ذراعي كفزّاعة منصوبة في وسط حقل واسع.. أناديها تعالي.. قفي بجانبي وعانقي المطر.... انعتقي مما تحبسين داخلك فيه.. تحرّري من قيودك التي تشدّك للحزن.. اشعري بحرية.. بصوت مختلف وبغناء مع الطبيعة.. جاهريها بسعادتك لا تخفيها.. اقتربي فقط.. وحاولي أن تطردي أشياءك العالقة من نفسك.. أن تفرغي اللحظات السالبة منها.. أن تتطهري وتتصلبي لتقاومي أكوام الوجع.

ردّت بحنق ترجوني مجددًا.. أيتها العنيدة عودي.. ما لي وما للطبيعة يكفيها أنت من المجانين يقيمون معها حفلة صاخبة.. ستمرضين وسألحقك أنا بمرضي..

ثم علا صوتها مجددًا بتهديد واضح.. اسمعي، إن لم تعودي معي سأتركك وأنصرف مع السائق..

سألتها بدهشة وأنا أمازحها بابتسامة واسعة: أوَ تفعلين!؟

بحنق ردّت وهي تزمّ شفتيها: نعم، هل تجربين؟!

لا أحد معنا، أنا وهي في هذا المكان نقف وحدنا على جانبي الطريق البحري لا يفصل بيننا غير حاجز من الأمطار وبقعة ضوء وتحدٍ تعلنه لي إن لم أعد.. وبقايا جراح تغسلها روحينا... «أنمتلئ بالحزن «راوية» وبداخلنا ترقد صور وحكايات لطفولة غافية على مهل..»

قلت لها أخيرًا:

اهدئي وتعالي معي ألقي بكيسك جانبًا، تبدين به خائفة كفأرة حقل جللتها الحيرة، قفي بقربي واسبحي في فضائك متخففة من ترددك، هل تخشين من الناس!.. لا أحد في الطريق سيراك، اكشفي جراحك الغائرة واتركي السماء تلعقها.. حاولي فقط وستفلحين..

كنت أرنو لإلقاء الضوء على نقاط الضعف فينا ومقاومة الحزن.. فالحزن خاصية تتناسل بداخلنا وتتمدد لتنشر الوجل بكياننا بينما تحبس قدرتنا على مواجهة الأمور الصعبة.

اكتفت هي بحدجي بنظرة استنكار غاضبة، واحتجّت مرة أخرى لتقول بحنق لم تحاول أن تخفيه.. تبًّا لك من فتاة متمردة، أنا المخطئة وحدي حين أصغيت لك وجئت لأشهد جنونك الصاخب.. وها قد مارسته باحتفاء تحت قبلات السماء كما تحبين تسميتها.. أخشى أنك ستدخلين في باب المحظور إن قبلتك السماء أكثر مما أرى.. هيا لنعد فقد أطلنا البقاء..

قلت لها مداعبة لأخفّف من انفعالها:

تبدين جميلة أكثر وأنت غاضبة.. سأحبك «راوية».. رغم حنقك رغم لذاعة لسانك.. رغم خوفك وجبنك.. فأنتِ أعزّ صديقة لي ولن أكفّ عن مشاغبتك..

ابتسمت لي أخيرًا، ثم تعالت ضحكاتنا، ضحكنا

طويلًا حدّ التعب، ومن ثم التقطنا أنفاسنا ونحن نعود للسيارة ركضًا.. كان السائق معقود الحاجبين حين عدنا وبدا متضجرًا من انتظاره الطويل.. ورفيقتي مازال كيسها منشورًا على رأسها تحتمي به من قبلات السماء..

قالت حين دخلت السيارة:

كيف ستجلسين والبلل أصاب كل ملابسك..

قلت وأنا أسحب منها كيسها بمرح.. لا عليكِ.. هذا سيفي بالغرض إن قلبته فسأجلس عليه وينتهي الأمر..

الـذيـن يـتـحـدثـون مـعـك.. لا ينبـئونك بـحـجم الـشـجـن الـذي يـرقـد داخلـهـم وإن باحوا لك بـما فيهم..

لكنهـم يبلغوك أنهم يتوجعون.. فأرواحهم معلّقة بسقف الذكريات دون أن يـحـسـنـوا الـتـصـرف حيالها..

فواصل للشجن..

لم تكن نظرتها البعيدة لافتة فقط.. كانت تبدو وكأنها تستحضر حكايتها من مخبئها السري الذي تركته يطويها.. كان هذا أول لقاء لي بها، هاتفتني عدة مرات تريد موعدًا قريبًا، لم يكن بإمكاني التجاوب معها فمواعيد العيادة مكتظة، لكن حالة قبلها اعتذرت عن الحضور فحالفها الحظ.. جاءت مع طفلتها لمشكلة تخصّ الطفلة، خوف وعناد وتبول لا إرادي، فهمت منها أنها منفصلة حديثًا عن زوجها ولديها طفلتان، ولم يكن انفصالهما عن مشاكل ظاهرة رغم ارتباط ما يقارب الثمانية أعوام، إلا أن هذا القرار جاء برغبة من كليهما، من الطبيعي أن يجرّني الحديث عن سبب ما حصل، بدأت تروي قصتها.. كانت طفلتها تختبئ خلفها متوارية من الغرباء، الطفلة تفرق بينها وبين أمها بلون البشرة وتقاطيع الوجه المخملية التي بدت متجلية في وجه الأم.

حملني حديثها عن مشكلة ابنتها لتتبع قصتها ومع انحناءات الحزن البادية في صوتها تتبعت التوجس الذي تخشاه.. شجعتها على الحديث عن نفسها بأريحية.. لم يبدُ الأمر عليها مستحيلًا.. فقد جاءت عيادتي لتتحدث، حاولت أن تخفي حزنها لكن دموعها بقيت تفضح نبرتها..

طوّقتها طفلتها مجددًا والتفت تعبث بعباءتها فسحبت هي طرفها منها وعادت تعطيها شيئًا تتلهى به عنها، الطفلة التي لم تقتنع بلعبة من البلاستك لم تكف عنها ولا عن الإلحاح عليها بالخروج.

عادت تجرّ عباءتها بشدة تعلن ضيقها وتبرمها من المكان، بدأ الأمر يزعج السيدة الصغيرة التي تجلس قبالتي.. عادة أحمل بعض الحلوى والبالونات الملونة بدرجي لمواقف كهذه تصادفني مع الأطفال الذين يزورونني مع والديهم أو أحدهما، وبدأت الطفلة تتلهى عن حديثنا بالحلوى التي أخذت بعضها لها ولأختها وأخريتين من قريباتها اللتان تلعب معهما.. التفتت لي فأومأت لها أن تواصل سردها، قالت وهي تحتضن ذكرى قصتها.. كان قدري غريبًا.. لست أدرك كيف حدث الأمر هكذا لكنه حدث وانتهى.. لقد تخلص كل منا من الآخر وخرج من عالمه الحقيقي، ربما بدأ الأمر بمكايدات مختلفة وبتدخلات كثيرة لكنه انتهى فجأة.. انفصالنا ووالدهما تمّ قبل عامين كانفصال عاطفي، اختار كل منا البعد عن صاحبه، لكننا واصلنا استمرارنا بمهاتفة بعضنا مدة طويلة، نتابع أخبار طفلتينا ونسترسل في الحديث عن أنفسنا وعن مشاعرنا أحيانًا كعاشقين أغواهما العشق... ولم نتطرق للعودة لبعضنا على اعتبار أن كلًّا منا اختار هذا برغبته ولن يتنازل حتى يتنازل صاحبه... عام ونصف ونستمر هكذا لم يتدخل أحد بيننا لأننا اعتقدنا أن هذا ما نريده... وصمتت وهي ترقب صغيرتها تحاول فتح مظرف الحلوى بيدها فلم

تفلح.. أبصرتها الطفلة وجاءتها لتفتحه لها ففعلت.. اتسخت يدها بالشوكلاه فقرّبت منها علبة المناديل لتمسحها.. شكرتني وابتسمت.

قلت لها هل ارتبط بأخرى بعدك، هزّت رأسها بلا، رغم أنها توقعته أن يفعل.. عدت وسألتها، لكني لم أعرف حتى الآن سبب المشكلة التي أدّت إلى كل هذا.. نفضت كتفيها، لا شيء محددًا غير مشاكل عالقة بالسطح تبدو عادية ربما لكنه لم يقدم على تجاوزها معي.

النسيان أمر تحاوله رغم مسؤوليتها التي بدأتها.. سألتها عن شعورها الآن كيف يمكنها أن تصفه وهل أمكنها أن تحتفي بالألم الذي اقتحم سعادتها السابقة.. أجابتني بأنها تمكّنت من النهوض على كل حال.. بعدها لفحتني حرارة صوتها، فتصورتها تريد حلًّا تلتمس به إعادة صياغة عالمها الذي اختلطت أجزاؤه فجأة فأربكت كيانها، لكني وجدتها تتحدث عن مستقبلها وترسم طريقها فيه بعناية على الرغم من حزنها الذي تغسله، وبدأت أرسم إطارات كثيرة لنفسيات الناس الذين أتعرف عليهم كل يوم وتفصلني عنهم خصوصيات حياة يعيشونها فيطلعوني على بعضها..

تطلّعت إليها بعد ذلك وأنا أهب الصغيرة بعض البالونات لتحتفي بها مع أختها.. لاحظت أنها لم تبد لي رغبة في أن أقدم لها نصيحة ما للعودة أو وسيلة جديدة للصلح مع والد طفلتيها.. قالت إن أمر طفلتيها هو ما تكرّس حياتها له.. عادة ما يتمّ لقائي بحالات كهذه

بسؤالي عمّا يتوقعونه مني لمساعدتهم.. فعلت، لكنها لم تقل شيئًا حين ذكرته لها.. قالت وهي تحتضن طفلتها.. لا شيء، فقط كنت أبحث عن شخص أخبره بأني أحاول أن أواصل حياتي رغم تعثري.. حاولت أن أبحث عن شيء تطلبه مني غير التقييم السلوكي لمشكلة ابنتها الصغيرة ومتابعة جلساتها في العيادة... وبعد حديث متواصل قالت وهي تخفي شيئًا من الألم الذي حاصر كبرياءها، ربما تستغرب سيدي أني صفحت عن أمور كثيرة حدثت، منها قسوته، غضبه المتكرر، خياناته وتشتته.. لكن أمرًا واحدًا جعلني أقرر الانفصال.. بادرتها بالسؤال عنه لأفهم السبب،.. صمتت برهة وأنا لازلت أنتظرها لتخبرني عنه،، فقالت هو طقطقة حوافر الروح حين تتفلت منا فجأة متسربة من بيننا كالريح التي تأتي خلف الأسوار الصامتة ثم تغادرنا على عجل..

لم أفهمك سيدتي، كان هذا هو ردي إزاء ما قالته!

فتابعت وهي تعلّق نظراتها في اللاشيء لتخبرني.. عشنا نراكم الخيبات حتى امتلأت حواشينا بفواصل الشجن.. فبيني وبينه رقص الوجع على حواف الروح فانهزمت مشاعرنا. خالية إلّا من صحف الحزن المتراكمة.

بهتت الألوان أمامي فجأة وتبدّدت بعض أسئلتي المتعلقة بها، انصرفت بعد أن ارتكز حضورها في مخيلتي، فتقوضت ذاكرتي بقصتها اللافتة، ربما هي حالة خاصة ونادرة لا أصادفها كل يوم بين حالاتي المتكررة، قصة حب

مكتظة بالمشاعر الشفيفة وجراح غائرة تعلق وسطها، وتمدد دافئ على حواشي الروح فغدت ضفة ساحرة.. الأكيد أن هذه السيدة أحبّت زوجها كما فعل هو، لكنهما تماديا في عنادهما حتى مزقا عشهما.. كان النهار مزدحمًا كالعادة بحالات كثيرة أصادفها كل يوم وأتفاعل معها، تشركني في تفاصيلها فأتصادق معها وقد أعتب عليها أو أوبّخها، لكن هذه السيدة بطفلتها كانا قد احتلا مساحة من تفكيري.

وأدركت بعد مضي مدة أن البعض لديه الكثير من الأمور لا يمكن أن تعالجها له بالكلمات وإعطاء الحلول فحسب، لأنها ترتكز على خيوط رفيعة للغاية لا يمكنك الإمساك بها وإن فعلت لن تعرف كيف تجمعها.. فما أعجب قلوب البشر!!.

لا أعـرف حـجـم الأشـيـاء الـتـي تـحـتـاج لـبـراهـيـن وأدلـة لـتـؤكـد ملكيتنا لها، لا أعرفها بالضبط، لـكـنـي أعـرف أن الانـتـمـاء وحـده كافٍ ليظهرها..

النجم الذي أمتلكه في السماء..

أتشاغل بما أفكر به متجاهلة تحذيرات والدتي المستمرة، «انتبهي لخطواتك حتى لا تكسري عنقك..» كنت أتسلى بحركة مشي القمر معي، وأتوهم ملاحقته لي، متظاهرة للجميع بأنه يتبعني، ورحت أراقب نجمًا مختلفًا بدا لي الأكثر توهجًا وصفاء، راقبته حتى صار يصافح نظري كلما علقته بسواد الليل.. حدثت بيننا ألفة جعلتني أعتاد المشي متراجعة للخلف لأراقبه.. جذبتني السماء بنجومها البراقة.. لم يكن يشدني شيء في صغري أكثر من هذه الطريقة في المشي وأنا أرفع رأسي للسماء لمراقبة القمر والنجوم. كان الوضع يبدو مقلوبًا وكأن أفلاك السماء تلاحقني هي الأخرى بالمسير ورائي.

كانت قدماي عارية لا تنتعل شيئًا غير تراب الإسفلت الذي صبّ في الطريق حديثًا أتذكر وقت أن رصفت شوارعنا به، أذكر هذا جيدًا.. كان ساخنًا ويحيط به تكاثف الدخان، وكأنه يبدو كشطيرة أُخرجت للتو من فرنها، لم نتمكن من المشي عليه حفاة كما كنا نفعل دومًا، لذا انتظرنا حتى تبرد الأرض، وبعد أيام نسينا حداثة الشارع وعدنا نسير فيه بحرية وكأننا معتادون عليه منذ زمن..

آه، ربما كان ذلك قبيل أذان المغرب، لا تحتفظ ذاكرتي بالتفاصيل دومًا. كم أحببت المشي بهذه الطريقة الارتجاعية للخلف، فضّلت مسافة خطواتي على ذاكرة الممر الطويل بالشارع الذي يضمّ بيتنا إلى باقي بيوت الحي، رغم خشيتي أحيانًا من التعثر بجسم ما أو حائط يضرب جمجمتي كما كان يحصل معي أحيانًا.. هذه الطريقة تجعلك ترى العالم بكينونة أخرى مختلفة تمسك الأمور كما تريد وعلى سجيتها، كيفما تشاء لا أحد يفرض عليك قوانين لتحريك الأشياء حولك..

أبدو أكيدة أنه خاص بي، بدا نجمًا لامعًا، أملكه وحدي مستغلة قصور أترابي عن التحقق من مكانته أو الوصول له، صار ملكي بالهوية، بالتفرد، بمدّ البصر بمراقبة كل الزوايا، باستنهاض الحلم واحتضان التوهج، وبالتوحد مع تلك الإشارات الضوئية الشفافة التي تومض بداخلي كلما صقله ضوء القمر فبدا متفردًا بتلألئه. بعض رفاقي راحوا يتبارون بامتلاك العديد بل والمئات من نجوم السماء المترامية.. أحدهم حاول التقافز ذات مساء ليطال البدر، لكنهم أبدًا لم يحصلوا عليه، كنت أتابعه دومًا في مكانه القصي، مخترقة سهام النظر للسماء بمسافات طويلة، مباعدة كل أطياف الغيمات لأكتشفه، باحثة عن انسكاب الضوء المشع لأغتسل به.. هذا الضوء يعنيني.. يدلّل على ملكيتي له، فبقي لي وحدي.. لم تكن طفولتنا مبهوتة الملامح، كانت مليئة بسحر الذكريات الخافتة التي استغرقت عالمنا كله.. وكنا نمارس فيها طقوسنا الصغيرة،

كان الحب والكره، الرغبة والفعل، أمورًا في قدرة عالمنا الصغير.

حين كنت في السابعة، كنت أحسب القمر يتبعني كظلي ويمكن أن أطال السماء بيدي وإن فعلت فسألمس النجوم لو مددت لها يدي.. وحين كبرنا تعقّدت الأمور في حياة الناس.. آه، لماذا ينتهك التغيير جمالية الأشياء البسيطة فلا يبقي على نكهتها التي نحبّ.. أتساءل فحسب.

ادعت بعض رفيقاتي قصصًا متشابهة لامتلاكهن نجومًا تقترب من نجمي المميز، لكن قصصهن أتت واهية، قصتي أنا وحدها استمرت معي، لأنها نمت بداخلي بينما راح الجميع ينسى هذا الحدث وأمر هذه الكواكب المشعة القريبة... إذ لم يعد أحد ينتمي لها، أو يهتم بأن تكون في حياته أشياء مثلها.

وإذًا، كان لي نجم مختلف أتفقده من وقت لآخر، وكان لي قصور من الرمل أبنيها مع رفاقي على حواف الشاطئ الرملي نمزج الماء بالرمل فنصنع بيوت الطين نزيّنها بأصداف الشاطئ، ورغم أن الموج كان يخترقها ليجرفها ويساويها بحواف البحر غير أن بناءها كان أمرًا كقطعة من النعيم ينقلنا للحلم الجميل بامتلاك عالم رملي حرّ لا ينازعنا فيه واقع حجري مفروض.. كانت مساحة الهدوء بداخلنا تكفي لملء النفوس بالطمأنينة، لكن الأمر صار مختلفًا بعد أن كبرنا.. داهمنا الصمت فصرنا نختم به

أحلامنا ونعبّئها في زجاجات قديمة، ندفنها في باطن أرض تختزل الحزن، فلا تنبت حقولها غير مزيد من البؤس تسقيه الدموع.

.. لقد نسيت حكاية النجم والسماء حين كبرت، وبالطبع انتعلت حذاءً ولم أعد أصافح الأرض بقدمي الحافيتين كان لي نجم أمتلكه، هو من بواقي طفولة غابت عني.. أتفقده بين وقت وآخر.. أطمئن لوجوده في السماء.. لا أتابعه باستمرار، ربما نسيت السؤال عنه ونسيت تفقده.. مكتفية أحيانًا بملكيته.. قبل عدة سنوات تعرفت على صديقة لي كانت تدرس معي بالجامعة وكان لها بعض ما يشابهني، كانت تنسج من الخيال حقيقة جميلة تعيشها.. كنا نمارس تلوين حياتنا بالضحك والكلام حدّ الثرثرة، ونشغل الوقت بقطعه في خيالات شتى بحديث متكرر وكأنه واقع مفروغ منه، لا قصة نخترعها وننثر فوقها بعض الأمنيات الحالمة.. واكتشفت أن صديقتي تنازعني في أمره وتدعي أنه لها!.. كنت أبدو حانقة عندما أشرت له بيدي من شرفة الغرفة حيث كان لا يزال رابضًا في موقعه القديم وسط سكون الليل لأشاكسها بأن هذا النجم كان لي قبلًا... وحتى نثبت أينا امتلكته أولًا بدأنا بحساب أعمارنا بالأيام والساعات لتثبت كل منا أهليتها العمرية لامتلاكه.. يستغرقنا الوقت بالضحك ونبقى نتجادل حدّ التعب أحيانًا فلا نصل إلى حلٍّ..

فكرت بالأمر خلسة، لا أعرف حجم الأشياء التي تحتاج لبراهين وأدلة لتؤكد ملكيتنا لها.. لا أعرفها

بالضبط، لكني أعرف أن الانتماء وحده كافٍ ليظهرها، قلت: لعلها أخذته مني ساعة غفلة، سأحتاج لقوة خفية تعيده إليَّ. . تذكرت ذلك الضوء. . الوميض الخاطف الذي يخصني به حين يتجلى بهيًّا، إنه علامة الملكية التي تعنيني. ترى. . أين يقع الآن بالضبط. . لست أدري. . لكن حسبي أني ألمحه بين النجوم كلما طالعت السماء. . هو الأكثر توهجًا. . والأكثر لمعانًا وبريقًا. . مختلف حتى بالحجم. . كأنه ياقوتة تشعّ بالضوء تناديني لتدلّل على نفسها. . لا أذكر أني امتلكت شيئًا مهمًّا في طفولتي غير هذا النجم الذي أخبّئه في جيب ذاكرتي وأستحضره أحيانًا منها، لم أشأ أن أنازع فيه رفيقتي التي لمست بداخلها مساحات شاسعة من الخيال وقدرة على بلورة الأشياء وتشكيل صيرورتها وملء حياتها بالدهشة، وهي تحتفظ ببعض طفولتها كما أفعل. . ربما نسيت هذا الجدل الذي انفجر بيننا فجأة. .

حدث الأمر هكذا بلا مقدمات. . حين نادتني ذات ليلة لتطلعني عليه. . قالت تعالي أريكِ نجمي المشع. آه هو نجمي. . هكذا حدثت نفسي، فكيف وجدته!، ربما أكون قد تباعدت عنه فأخذته مني دون أن أدري، هي تصرّ على أنه لها، كان من الممكن أن تأخذه أخرى لا أعرفها فيضيع مني للأبد، حمدًا لله أنها رفيقتي، لكن كيف أثبت ملكيته ولا صكوك على النجوم في السماء؟ فالكواكب والأفلاك على مرمى البصر والكل يمكنه بأن يدعي امتلاك بعضها، لكن هذا نجمي، هو لي بالطبع. . يخصّني وحدي. . وجدته منذ الصغر. . أعرف هذا. . قدماي العاريتان هما

شاهداي.. الضربات العنيفة التي حصدتها كانت دليلي.. توبيخ والدتي.. كلها براهيني، كنت أتابعه كل مساء من سطح بيتنا حتى يطّلع علي مشعًا فأغرقه بأمنياتي الحالمة وأتوسد ضوءه ككنز من شوق ممتد لطفولتي فيبرقني باسمًا.

قلت لها: هو نجمي الذي أهمس له دومًا بأسراري، وأخبره عن آمالي وأعلّق على بريقه أحلامي.. كنت أمتلئ بالليل وحدي فأشقّ صمته بمناجاته.

قالت بإصرار: لا....، هو لي، أنا أملكه منذ دهر.. ربما قبلًا عنك.

تشابكنا بالعناد كل منا تدعيه لها وتصرّ على ملكيته، صمت متسائلة: رباه كيف يمكن لي استعادته منها.. كنت أبتسم وأنا أستمع إليها لتكمل حكايتها معه.. ووجدتها فرصة لتحدثني عن نفسها.. أصغيت إليها بعمق، تحدثت عن طفولتها وأحلامها، عن آمالها التي خطت ملامحها على أثرها، عن الناس الذين التقتهم، عن فقدها لعزيز عليها وشعورها بالحزن وبالفراغ حين رحل، كما حدثتني عن مناطق الضحك التي تطؤها روحها وعن خططها القادمة التي لا تعرف كيف ستديرها.. كنت أنصت لها وأبتسم لأني استطعت أن أقترب من روحها فاختصرت مسافات الزمن بنزاع على نجم معلّق في السماء.. فعلت وأهديتها أمنية وأحضرت لها في اليوم التالي زهرة ملفوفة بالحب.

فكرت بأخذه منها طبعًا.. لكن لا ضير من أن أبقيه معها لبعض الوقت.. لم يمض علينا وقت طويل.. سألتها

بعد مدة أن تهديه لي. . كنت أبدو مصرّة. . ترددت قليلًا ومن ثم قالت وهي تراقب السماء حيث كان تلك الليلة أبهى ما يكون:

حسنًا، أعرف شغفك بهذا النجم وولعك به. . أعرف، لن تهدئي حتى تحصلي عليه. . . ولأني أحبك فسأعطيه لك.

هكذا ببساطة صار ملكًا لي وحدي، باختصار عاد لممتلكاتي. . استطعت أن آخذه بالحب. . رحت أتقافز بمرح طفولي قريبًا من الشرفة، كانت سعادتي بادية وأنا أمسك بيدها تارة وأرسل قبلاتي للسماء تارة أخرى. . ضحك الجميع منا. . رفيقاتنا ظنن أن ما يحصل بيننا سذاجة. . قالوا عنا هُبل ومجانين. . لم يهمني هذا على الإطلاق، ما أحلى أن نعود للجنون في الحصول على أشياء ثمينة لا يقدّرها الآخرون. . . . أحبّ هذا الجنون البريء الذي لن يؤذي أحدًا. . رفعت بصري لأطمئن أنه مازال هناك في مكانه. . حدّقت فيه وأنا أبتسم. .

قلت له بنبرة متوعدة:

«يا ويلك لو تركتني لتأخذك غيري. . !!»

لرائحة الذكريات العتيقة حنين
يبعث الدفء فينا فيوقظ
ذكرياتنا الغافية..

نلامسه كلما فتحنا عبق الماضي
فانتشينا برائحته الطيبة..

ليتها كانت باقية.. ليتها دامت
ودام طيبها...

جدتي لولو

أسكن ذاكرة المكان في ظل خطواتي المرتبكة.. أذرعها بحجة قطع أوتار الغياب.. أطابق ظلها على أرض رملية مهملة في بقايا منزل مهجور كنا نسكنه.. أسوِّل لنفسي استحضار الصور من مخابئها وما تبقى من الذكريات العتيقة تتلاشى كلها عدا صور متفرقة أحاول ربط أجزائها الواهنة في وصف مجازي ممكن أن تقطعه للحظات رائحة الغبار المتراكم..

أعواد الخوص المبلولة رغم رقتها إلا أنها تصنع منها كل شيء، فهي تقدس مصدرها وتعشقه كتاريخ عريق تلتصق به، إنها بؤرة اهتمامها وتسليتها الوحيدة ربما، عدا عن تجمعها شبه اليومي مع جاراتها كل أصيل.. أناملها خشنة، لكنها تتحرك متداخلة مع الخوص بتناغم سريع الإيقاع تصنع منه سلالًا جميلة وتمزجها بألوان خضراء وحمراء مصبوغة بعناية..

أحب الأشياء التي تمارسها وقت الأصيل.. تفترش حصيرها القديم الذي صنعته مسبقًا على الأرض وتجلس عند المغيب لتنسج سلالها التي لا تنتهي منها لتقطع بها الوقت.. بجانبها دلة قهوة عربية وفناجين مغمورة بماء

صاف حتى المنتصف، وبضع تمرات تسدّ بها جوعها وسط قرّ النهار وقيظه... وأنا أقف بقربها أتوسط المسافة الفاصلة ما بينها وبين خيوط الشمس المنسحبة عن النهار.. أنتظر رفيقاتي يقدمن حين يزرننا جاراتنا ساعات العصرية لنتسلى.. نختلس الوقت المتبقي لنا قبل الكُتّاب أو بعده..

تكلفني بطلباتهن وتجهيز غليونهن فأجيبها مرغمة حتى لا أبدو كفتاة عاقّة أمام النسوة.. أفلت من بينهن وأنا أسرع مع صويحباتي نتغامز ونتضاحك ونتفتل في البيت بعيدًا عنهن ونتسلى بأكل قلائد الخلال الناضج الذي أحضرته إحداهن أو ثمرات اللوز والكعك إن حان موسمه، وربما عنّ لإحدانا قصّ شعر رأسها أو تجريب «الديرمة».. أمسكت بي ذات مرة أضعها خلسة عنها، معتمدة على ضعف بصرها الذي تراخى كلما كبرت فوبختني وضربتني وأقسمت أن ترسلني لوالدي بالخفجي لأنه لم يعد لها قدرة على كسر ضلوعي المعوجة..

شعرها المصبوغ بلون الحناء يظهر جزء منه وتداعب الريح مقدمته فتتفلت منه خصلة شاردة تتوهج كشعاع الشمس.. لا تبتسم هي عادة وهي تدخن غليونها الحار، لكني ألحظ ثنايا أسنانها المذهبة التي ألبستهم في عام سفرها للعراق قبل ولادتي بأربع أو خمس سنوات... اعتادت جدتي «لولو» على امتصاص المصائب والهزائم في حياة متوالية.. حريق ابنها الأوسط وموت ابنة لها بالحمى قبل بلوغها الزواج.. ووفاة جدي ومن بعده وفاة والدتي وزواج أبي ورحيله عنها مع زوجته.. أمور تحطّ على

أسوار قلبها بالحزن كسرب غربان أسود لا ينتهي نعيقها..
ومثل شيخ جرّبته الحياة ولوّنت إيمانه بالصبر والفضائل
تلوح تباشير الإيمان والقضاء لتعلق بها أوجاعها عن كبتها
في صدرها.. تؤثر الحديث عني وعن أملها بمستقبلي على
خوض جراح الماضي وتتأمل أن ترى أبنائي يكبرون
بعافيتهم.. تقطع حبل أمنياتها بدعاء مختوم تعلقه بأبواب
السماء حين يؤذن لصلاة الظهر.. تنهض مع تباطؤ صحتها
للوضوء وهي تردد أدعية تحفظها بلحن واضح في فمها،
وتستحثني للنهوض خلفها حتى لا تفوتني الصلاة عن وقتها
فتقطع السماء رزقي وأبدو كعجز نخلة خاوية.. أمارس
التحديق للطريق من خلال فتحات الباب الخشبي الضخم
ومن بين الثلمات المتباعدة فيه أعلق على الصبية في الشارع
والباعة وبعض المارة بالطريق.. فتعاتبني بنظرة غاضبة
وتنهاني عن سوء الأخلاق.. أجادلها أن لا تسلية هنا
بالبيت غير زيارة بعض النساء وبناتهن لنا والنظر من فتحة
الباب.. تصرخ فيَّ أحيانًا لتقول:

شقية وسيبتليك الله بمن هم بمثل شقاوتك فكما تُدين
تدان.. وتصرفني مزمجرة لأسترجع دروس الكُتّاب فهذا ما
يوسمني بالفلاح...

صغيرة كنت أخطّ طفولتي الأولى حين توفيت
والدتي.. لم أشهد حدث وفاتها لكني سمعت ضجيج نساء
الحي في الشارع.. كنت ألعب مع رفيقاتي في فناء قرب
بيت الجيران وأنا ألتقط الصراخ المتعالي.. وشهقات
مكتومة تختمها عبارات الصبر والتسليم بالقضاء والرحمة..

لكزتني إحداهن والدتك «ماتت».. لم أكد أفهم معنى الموت وأدرك أسبابه ولماذا الناس يرحلون إليه مرغمين.. فركضت أبحث عنها ووجدت أيدٍ كثيرة تسحبني خارج الحدث.. سيارة مجنونة اصطدمت بها فأودت بحياتها.. ورغم أن الأفق كان لايزال ناهضًا بالحياة إلا أني شعرت بالكثير من الظلام كأن العالم انطفأ فجأة..

تطالعني بغضب جدتي كلما تمايلت بخصري أمامها، لتكمل عملها بعد نظرة تحذير حادة، أدخل غرفتي مع رفيقاتي نتعبد صورنا النابضة بالحياة والشقاوة أمام المرآة نستعرض ملابس جديدة وحليًّا مزيفة ابتعناها من أحد الأسواق المتنقلة، ونبدأ في ندف الأحلام نستقيها من تلصص ما للمستقبل في مراهقة مبكرة.. نتشاجر نتشاكس واحدة تجرّ شعر الأخرى والباقي يغرق في الضحك.. أسمع همهمات تسبيحها بالخارج فأهمس لهن «اصمتن» فيتمادين من جديد

أخشى غضبها وأرتعد خشية أن تنال مني أمامهن فلن تكفّ حتى تفعل.. أتوسل لهن أن يكففن حتى تهدأ.. يداعبنني ماذا تصنع جدتك بالخوص طوال الوقت.. أهزّ كتفي

لست أعرف... وأبدأ في التفكير «إنها جالسة تنسجه طوال الوقت فما الذي ستصنعه به..!»

امرأتان أصبحنا بالبيت الخالي ذي الجدران العالية الرطبة.. تأقلمنا مع جفاف الحياة والوحشة أحيانًا

وطقوسها، ومرور والدي المتباعد عنا مع أسرته فهو لا يحضر معهم إلّا نادرًا.. لكننا تورطنا بكوننا صرنا نقطة التقاء لجاراتنا وبناتهن في الحي.. ليتحررن من وجود الرجل في مكان لا هيمنة له فيه عليهن.. أتساءل عن أبي في الليل.. أقترب منها وأنا أدلّك راحة قدميها الجافتين فأتحسس تشققات عميقة رسمتها حياة قاسية حين تضمنا جدران متآكلة وسقف خشبي مثقل بوزنه المتدلي، كأنه يوشك على السقوط بغرفتنا الرطبة في الزاوية الغربية من البيت القديم.. أهمس في عينيها الغائرتين وكأني أراهما لأول مرة...

ـ ماذا عن أمي يا جدتي..؟

كأني أسمع صوتها الواهن يحدثني عنها في ليل حالك بعد تمتمات صلاتها.. ما كنت بحاجة لسؤالها لأتَعرف لما عانته من حزن بعد رحيلها.. فمَلامح وجهِها سبقت حديثها.. كانت.. ابنة أختي ربيتها بنفسي بعد وفاة والداها في حادث سيارة الحجاج القديم لمكة، كبرت وأعطيتها ابني حين أدرك رشده.. كانت تحنو على قلبي وترتب بيتي وتتكلف بعنايتي.. تطببني حين أمرض وتسليني حين أتململ في فراشي... لكن عمرها قصير كعمر خالتها وابنة خالتها.. كذلك الفراشات عمرها قصير..

لم أشعر بفقداني لها، كانت جدتي قد تكفلت بتربيتي ولم تسمح بأن يصطحبني والدي معه حتى بعد زواجه، كنت أسمعها تقولها له باستمرار حين يحاول اصطحابي

معه.. «الفتاة ستبقى معي والحضن الذى ربى والدتها لن يعجز عن تربيتها»... هي حانية وتحبني ولم تكن مجبرة على احتضاني فقد ربّت حتى كلَّت لكنها فعلت تعطفًا منها ورحمة...

منذ يومين وهي تتابع سعالها بشكل متصل فتشرق به.. الألم يكاد يقطع رئتيها ونزيفها يشتد ويزداد. أخبرها الشيخ أن التدخين أفسد رئتيها وأن نهايتها وشيكة فكانت توصي بي وتسأل عن ابنها الغائب.. وزعت نفسي بين العناية بها وبالبيت.. لم أعد ألتقي صويحباتي ولا أعاود التعلم في الكُتّاب.. أنتظر عودة والدي فقد أبلغناه بمرضها.. أغسل ملابسها وأمشط شعرها. أسقيها دواءها وألبسها عباءتها حين يأتي الشيخ ليعالجها ويقرأ على رأسها الآيات والتمائم.. وكلما مضى الوقت رتيبًا، حمل تورطي في قلق لم أكن أعرفه من قبل، وتداخلت صور الموتى بذاكرتي.. أراهم يمرون عليّ كأطياف تنبض بالحياة.. أشخاص كُثر عرفتهم بعد رحيلهم ولم ألتقهم من قبل.. خشيت من الوحدة.. ماذا إن حصل لها مكروه. إعياؤها يشتد يومًا بعد آخر.. لدغني هذا الهاجس فانتفضت هلعًا لحدوثه... تركت جسدي ملقى على السرير مدة وأنا أتابع أنفاسها تحملها أصداء الصباح بينما أشعة الشمس الدافئة تداعبني، حاولت أن أفكر ببعض الأشياء التي تستهويني حتى أدفع عني شرّ الهواجس فأدحرها... ومنها سكن صوتها الواهن بين الجدران الرطبة فغادرتني روحها بخفة بعد أن أفرغت دواءها الذي أعطيته لها...

الآن.. وبعد عشرة أعوام مضت من رحيلها، أعاود المرور بهذا البيت القديم أتنقل بين حجراته الرطبة.. ألتقي طيف جدتي «لولو» كمن يبحث عن هوية ذاكرته التي يخشى ضياعها في زحام الأحداث.. أحنو لها.. أقبّل يدها اليمنى بينما ترتفع في عينيّ ملامحها الحنونة وابتسامتها ترسل لروحي الدّعة..وكأني أسمع صوتها الواهن يتردد في أذني فيترامى بأصدائه في أرجاء المكان وأسبح في تفاصيل حياتنا وأراها تراقص أعواد الخوص الرطبة بسلال وقفف وحصر.. أتنقل معها من طيف لطيف وأشاكسها وأنا أتلمس بطني المكور وضربات طفلي التي لا تهدأ.. أصلي لها وأبتسم أن تسكن روحها في قرار مكين وأنا أشكر لها معروفها الذي مسح آثار يتمي فقد أحسنت كفالتي..

نعيش حياتنا في أقفاص
بمساحات مختلفة..

بعضنا يُفلح في الفرار وبعضنا
يرزح تحت ثقل الحبس..

ومن يطير لا تفلته الحرية دون
أن يدفع ضريبتها..

حتى وإن كانت صفعات يتلقاها
من حضن المطر..

أطير رغم صفعات المطر..

أنين مقلق يجتاحني كلما فكرت به.. نظراته مشتتة.. خطواته تذرع المكان.. كان يفكر بهستيرية غريبة.. لا قرار له.. لا انتصاف.. لا هدف ولا قيمة يلتف حولها، وكم نصبح مجوّفين حين نتخلى عن القيم..

ماذا يريد أن يصنع.. بل ماذا يريدني أن أصنع له.. أي معابر يعبرني بها دون أن أرغب.. وأ: وجهة يوجهني نحوها.. أي حلكة أسيرها مغمضة العينين دون أن أتحسس مداركي وأستبصر حقيقة الأشياء من حولي.. أفيحسن زرع الارتباك داخلي، أيمكنه هزّي من الأعماق.. لن أسمح بهذا.. فبداخلي كيان حر طليق وعنفوان لا يمكنه النيل منه.. ليس الطيران هو ما أنشده ففي كل طيران عودة وفي كل عودة انكسار أو وقوع يخلف وراءه جروح.. إنه حلم، حلم صعب المنال.. أن أطير بلا عودة.. أو أن أجد ملاذًا يحميني على الأقل أن أنجو بنفسي من دناءته..

كان الأمس أقرب لنا.. وكانت وسادة حلم نلعق في أطرافه حلوى مختلفة نستطعم مذاقها أمر نغبط أنفسنا عليه.. وكان ضوء النهار يشغلنا عن قلق الترقب والطوفان في مجاهل القادم... ما أكثر الذكريات والتمني حين تحط الخيبات في سمائنا فتثير زوبعة الألم..

تقدم لخطبتي كنت فرحة جدًّا كطفلة تلبس ثوبًا جديدًا. . حسبتني أعرف كيف تبدو النجوم مطرزة، حسبتني أعرف كيف تسير جداول المياه حين تلامس قدماي العاريتين وتدغدغان الحلم الأزرق. . حسبتني أسمع عزفًا منفردًا من ألحان مختلفة حين يخفق بقربي عصفور صغير. . حسبتني أحلّق في سماء متسعة وأخطو فوق أرض شاطئ أملس ناعم يحفر خطواتي الرخوة فوقه فيدغدغني. . وإذا به يسحبني بشدّة يجرني للأرض بقسوة دون مراعاة للحصى يجرحني وللشوك يدمي جسدي. . أي أحلام هذه التي تصنعها الرهبة فتبدل الأمن خوفًا والفرح حزنًا. . أي حياة تمتد وتتسع وهي ترتكز على الأوراق. . على عرق ليس لأحدنا أن يأكله فيطمئن أنه بمأمن من عواقبه. .

قلت له وفي داخلي ما يزال حلم يتكئ على أنين خفيض، يختصر أمنيات ترتفع. .

ـ الرجولة أمر يحمل معنى كبير لا يتقنه كل الرجال». . .

نظر لي بابتسامة صفراء، صفراء للغاية من خلف جريدته وقال. .

والأنوثة أمر لا تُحسنه كل النساء. . . اشتعلت براكيني. . غضبت حقًّا. . أردت أن أسكب فنجاني الساخن في وجهه البغيض. . تجاهلني تمامًا وعاد لجريدته. . كنت ألعق خيبتي وأنا أسترجع تفاصيل الحديث. . أي مقارنة هذه تلك التي يعقدها دونما تكافؤ. . رجل خائب فاشل وأناني وانتهازي وانتقامي يأكل عرقي ولا يخجل من الأمر

ويشتمني، في عرفه أن على كل امرأة أن تطيع زوجها طاعة عمياء مهما استعبدها وأذلّها.. والعماء هذا معناه كل شيء أو أنها بلا أنوثة.. جدليتنا نتباحث فيها كل يوم ولا من نقطة التقاء.. فقدت معه طعم الاستقرار.. لم تعد لرجولته في نظري أي منطلق يمكنه أن يبني بيننا جسورًا من الاحترام.. لطالما كنت أحسب أن لكرامة الرجل عنفوانًا مختلفًا.. وأن قياس الرجال ينبع من أنفتهم.. أما هو فقد تجاوزت مقاييسه الحد.. تذكرت حديثه عن الرجولة.. عن الأخلاق عن الدين عن كل القيم التي يتشدق بها عن وعن وعن.... والأهم عن الربط بين حقارة الرجل والتكالب على مال ليس له وابتزازه لحرية امرأة لم تعد ترغب فيه وتراه أكثر وضاعة مما يظهره..

عقاب نفسي وخصام وحرب مستترة وأحيانًا معلنة إن اضطر لها ليطوع الأمر كما يشتهي.. حياتنا أصبحت مادة، مادة فقط.. وللأسف لا محطة استرخاء نتوقف عندها.. الأمر أشبه بدجاجة تبيض بيضًا من ذهب لا يمكنه التفريط فيها لكنه يقدم على ذبحها متعمدًا.. وددت التحرر من همجيته، لكنه يأبى إعطائي حريتي دون مقابل.. كان يخطط لصفقة مقايضة..

أخبرته يومًا بكل جدية برغبتي في الانفصال.. ضحك بصوت عال.. ضحك بقبح وافتعال.. قال إني أحلم فهذا زواج أبدي.. ولم يعلق غير أنه وجّه نظرات حانقة نحوي، أصابتني بارتجاف هزّ كياني كله فشعرت كأني ورقه تهزّها الريح..

تركني وانصرف فعدت لنفسي ألملم بقاياها المتناثرة وهي تستعد للرحيل..

ورحلت..

لكن هذه المرة كان رحيلًا حقيقيًّا.. وإن قبض ثمنه بمقايضات مادية أرادها مسبقًا.. لكني أخيرًا استعدت حريتي وفردت جناحي أمررهما على الهواء.. وها أنا أطير مجددًا تحت صفعات المطر..

لا توضع المسافات بيننا وبينهم
إلّا حين تنكسر المشاعر..

وتتناثر أجزاؤنا في حضرتهم..

والذين يتقنون تحطيم المشاعر
يستحقون أن يطوّقوا بالمسافات
الفاصلة ردعاً لمحاولاتهم
اقتحامنا مجددًا..

قلوبنا ملكنا وحدنا وليست أمتعة
للراحلين.. فلا يتوهموا
امتلاكها..

قسَّمت المسافات..

حين وصلت للرقم المسجل، تأكدت أن شكوكي كلها صحيحة.. هل تحطمت روحي تمامًا.. هذا ما همست به لنفسي وأذهلني أن الأمر ليس بعد.. ما زال بداخلي مزيدٌ من التحدي.. كيف يمكنني أن أحدّد ما يجري بداخلي.. كيف أربطه بما يدور حولي.. إن الأمر أكبر من قدرتي على الوصول للفكرة الواضحة والنهائية فيه.. التزمت الصمت، وأحيانًا تجبرنا المواقف على الصمت.. هذه المرة كان صمتًا طويلًا.. صمت تحدٍّ واستعلاء على مرحلة التوسل والبكاء والنقاشات العقيمة وقلب الحقائق وركلات المراوغة والهروب.. وكل المحاولات ذهبت أدراج الرياح.. لا الصغار ولا مشاكساتهم ولا كلامه ولا هزّه لي، ولا أي تصنع كان يقوم به أمكنه أن يخرجني عن قراري.. أعرف أنني طلبت منه الانفصال مسبقًا.. وأعرف أني توسلت إليه أن يفعل ويتزوج بأخرى إن كان الأمر يريحه أن يفعل.. وأعرف أن قلبه غير متعلق بي وأني فرض من فروض أسرته عليه..

لنقل إنه استغرب صمتي.. ولنقل إنه أصيب بالدهشة.. أو لنقل إنه اعتاده أولًا.. ومن ثم بدأ الأمر يضايقه فبدأ يصرخ على غير عادته ويخرج حتى عن

طوره.. ولنقل إنه لم يفد من الأمر شيئًا رغم هزّه لي عدة مرات لأتحدث فلم أفعل.. ولأبدو بصراحة أكبر، لنقل إني استعدت ذاتي رغم هذا الصمت وشعرت بأني داخله أحتوي نفسي التي كاد يشتتها.. ولنضف أنه خنع أخيرًا، فبدأ يحاورني على غير عادته وأنني مع كل هذا لم أتجاوب معه.. تصاعدت الكلمات والتبريرات منه.. عشرات الكلمات وعشرات التبريرات لم يكن لها من جدوى.. قال أخيرًا بعد يأس بدا واضحًا في ملامحه المرهقة..

ـ حسنا لكِ ما تريدين.. إن شئت الانفصال سأفعل وإن شئت البقاء معي وفتح صفحة جديدة فسأمدّ يدي إليكِ وأنا راغب بهذا بالفعل..

ابتعدت.. لا أحد كان يعرف ما يجول بخاطري.. ولا أحد رغم التهليل كان يدرك عمق الجرح النازف بداخلي.. الأمر أكبر وأعقد من مجرد خلاف زوجي وزوبعة عابرة، أو هفوة زوج وقح يتباهى بنفسه أمام محفل النساء فقط ليرضي نزواته.. إنه خيانة لمستها وخادمتي حين كنا غائبين عن البيت ذات يوم مع الصغار، فجرنا النسيان للعودة لنلتقط حاجيات الأطفال ولعبهم.. خادمتي التي جذبتها الأصوات نحو الداخل اكتشفت الأمر فجاءتني فزعة ترتجف وتضع يدها على فمها

«مدام.. بابا معاه واحد بنت.. في المجلس سوى سوى....»

كنت عاقلة.. ربما فعلت في ردة فعلي.. كنت عاقلة

والعقل تهمة وسلاح موجه نحو صاحبه أحيانًا حين يسود الجنون ويستشري.. تفاديت الارتباك وطلبت منها أن تصمت وتنسحب بهدوء.. خرجت وتركت ورقة معلقة فوق المرآة المواجهة للمجلس مباشرة وبخط عريض كتبت فيها:

«يمكنك أن تمارس مجونك كما تشاء.. لكن أرجو أن ترتكب حماقاتك بعيدًا عن البيت.. فلا تدنسه وتشوّه صورة الأب والزوج عندنا.. أنا والخادمة شاهدناكما تمامًا كما كنتما تنجرفان نحو الرذيلة بلا ارتداع... ولتحمد ربك بأن الأطفال لم يكونوا معنا..»

اتفقنا على الانفصال بالرغم من أني لم أجره للفضائح وتركت أمر الانفصال كعارض بين أي زوجين لم يتفقا، واحتفظت بالحدث لنفسي بعد سفر خادمتي بجانب كسر كبير شرخ قلبي..

كان أخي بقربي يمسك بيدي حين تمّت الخطوات الأولى للانفصال.. بقيت صامتة مدة لكني شعرت بتخفف من عبء ثقيل جرّني نحو الهلاك.. سألني أخي وهو يتحسس مستوى إدراكي:

ـ كيف حالك الآن؟

لم أجبه.. لأني لم أعد أجد مخارج الحروف من صوتي فاكتفيت بابتسامة صغيرة رسمتها على زوايا فمي.. أخذت أرتّب حياتي مجددًا، وقسّمت المسافات بيننا كما يجب أن أفعل وكما ترك الأمر لي، بلا مقاومة منه ولا نزاع مني كأن الأمر واقع مفروض..

والأطفال بدا أمرهم مفروغًا منه. . سيمكثون عندي ويمكنه أن يراهم نهاية الاسبوع. . بقية الأشياء لم أتوسع فيها تركت الأمر بيد والدي وأسرتي. .

أحاول أن أنسى ما حدث. . حين تتشابك الأحداث وتتداخل تفصيلاتها، تختفي معالم الهويات ولا يبدو أن الفردية تنجح في الهيمنة. . لا أذكر أن الأمر بدا كحالة مرضية مستعصية. . لكنني مع هذا رضخت لأخي حين عرض عليّ زيارة طبيب نفسي للاستشارة والاطمئنان حتى لا يؤثر عليَّ الأمر ويدخلني في متاهات الاكتئاب. . لم أشعر أني بحاجة لفعل شيء حتى مجرد الكلام، الأمر فقط هو نوع من الاستراحة بعد حرب عنيفة ضغطت على أعصابي. . وكان الصمت ملاذي لأفعل. .

تحدثت ببضع كلمات لأطمئنهم عني وفضلت العزلة مجددًا رغم كل المحاولات باقتحامهم عزلتي عدا أني أرسل لهم تأكيدًا عن كوني بخير بين وقت وآخر. .

قد تجد دائمًا من يقتسم معك الأفراح، ولكنك غالبًا لا تجد من يقتسم معك حزنك. . بعد كل ما حدث هل يمكنني التفكير فيه. . في عيون الانزواء عن الناس، نبحث دومًا عن السلام حين تختلط الأمور. . فقط رغبت أن أبقى بمفردي في المسافة الفاصلة، أنظم تفاصيل حياتي اللاحقة وأستخلصها من مقتنيات رجل كان يرهقها كثيرًا بتصرفاته. . .

لازلنا نعاني ضياع الهويات والتجهيل.. ولا زالت الأمور متداخلة عندنا.. لذا لا يمكننا فهم أنفسنا والعالم الخارجي بدون فك قيود حرية التفكير

لطالما كانت معرفة الذات الوسيلة الوحيدة والحقيقية لتقوية الإيمان بالنفس والتعرف على إمكانياتها وتلاحمها بهذا الوجود الكبير..

هوية..

أسألها الصغيرة التي جلست بقربي تعبث بحافة الورقة البيضاء وتخربش بالألوان الخشبية، في خجل طفولي وارتباك عن رأيها في الحياة حولها، وعن ماما وبابا وصديقاتها ومدرستها. . فقالت وهي تدافع خجلها بابتسامة صغيرة:

ـ «كل شيء زين».

عاودت طرح تساؤلي عليها بطريقة مبسطة لأفهم أسبابها المنطقية للنفور مما حولها:

كل الأشياء جيدة، لكن بالضبط ثمة ما يمكننا أن نحبه ونجد بالمقابل له ضدًا نعلق عليه عدم ارتياحنا.

بعد تردد خجول قالت وهي تخربش بقلمها في الورقة البيضاء المبسوطة بيننا على الطاولة بعد أن نفضت كتفها نفيًا لتجيبني:

ـ «ما أدري»!

ابتسمت باستسلام وأنا أخربش معها في الورقة محدثة نفسي.

«هكذا حياتنا منذ الطفولة، ننشأ ونحن لا نبصر الفحص ولا تحديد هويات مشاعرنا ولا الانتصاف لها وربطها بالمجريات حولنا في عالمنا المتداخل!»

العطاء حالة تشبه احتضان السماء للأرض.. إنه نوع من البذل بلا حدود لمن امتلأت قلوبهم بالحب والخير..

إنها طريقتهم الوحيدة للتشابه مع الوجود من حولهم وكذلك السبيل الوحيد الذي يمكنهم أن يخبرونا من خلاله بقدر ما يحبونا به..

قوس الفرح...

القليل من التفكير يغنيني عن الانقبار.. أتحرك متباطئة في فراغات المكان كأنني سلحفاة بطيئة تقطع المسافة الفاصلة بينها وبين هدفها بمشقة.. أصبحت الأشياء متشابهة تمامًا عندي.. فلم يعد للأيام طعم ولا لليل وقع جميل غير الوحشة.. أشياء كثيرة كنت أخبئها من نفسي.. أنكمش عن التصريح بها فضلًا عن مجرد التلميح.. اختصارًا للأشياء والتفاصيل الصغيرة وللفرح والبهجة وللكلمات القلائل المتبادلة بشكل يومي عابر وعادي جدًّا في مجرد فعل «الصمت».. كم يبدو الصمت محرقة للحياة وقاتل للبهجة إن طال مداه واتسعت خطواته..

أي الأمور يمكنها أن تبعث الحياة بداخلي كما يجب.. أن تنثر شيئًا من الألفة تقطع السكون في هذه الجدران الصامتة من حولي.. تصحيح كراسات الطالبات التي أتعمد بقاءها معي كل يوم.. كأني أختصر الوحدة بها.. مشاهدة التلفاز.. قراءة بعض الكتب بجو كئيب.. المشي في الشقة جيئة وذهابًا لمدة نصف ساعة والتفكير في أصوات الناس في الشارع وما يمكن أن ينتج عنه..

محاولات عابثة بالتلفون لفرض نفسي على العائلة

التي تتملص من الرد على مكالماتي أحيانًا لانشغالها.. أم كتابة خطوات السعادة في ورقة ومحاولة تمثلها.. كل الأمور تبدو بنظري الآن واحدة لا أهمية لها سوى التحديق في الساعة وعقاربها المتململة...

اقترب موعده.. لم يعد بالإمكان الانتظار أكثر.. ترى هل أحدثه مباشرة بالأمر أم أكتفي بالتمهيد والإشارة وهو سيفهم.. عليّ أن أفعل.. الساعة تشير الآن لقرب التاسعة والنصف، على موعد هو للعودة..

تجوّلت خلال أجزاء النهار الراحل كثيرًا في الشقة كأنني أرتادها لأول مرة.. وبالرغم من كوني كنت أمارس أعمالي اليومية المعتادة، لكن بداخلي نما صمت تغذيه تنهدات طويلة.. كأس من الشاي على المنضدة بجانبه كأس آخر «لأحلام» صديقتي الممتلئة حياة.. كانت تثرثر معي عصر اليوم وبقايا طعام وحلوى ومكسرات كنا نتناولها أنا وهي.. لم أشأ رفع الصينية وملحقاتها من المكان مع أني عبرت الممر المؤدي إلى المطبخ عدة مرات مارة بها.. كنت ألتفت كل مرة لها وأبتسم مستحضرة حديثها الشقي معي:

ـ وبالأخير ستنجبين قبيلة أطفال.. لا، لا.. أرانب ملونة سنلهو بها أنا وأنت.

أضحك أنا من خزعبلاتها كالعادة وأجيبها:

ـ وهل الأطفال للهو كما تروين؟!

تجيبني بثقة:

ـ بلى.. أعني للتجارب.. لن تتقدم البشرية دون عرض خدمات مضحين كُثر، وأنت كما أسست الحلم لديك الكثير.. لن يضرك واحد واثنان تقدميهما لي.. قاطعتها بانزعاج وأنا أغوص معها في تفاصيل الخيال الأحمق الذي استحضرته فجأة.. وأسترسل مشيرة لأنفها بسبابتي الطويلة:

ـ اسمعي يا ذكية.. لن أضحي بأطفالي كلهم ولا جزء منهم.. هم أطفالي وأنا أمهم ولي فيهم الهيمنة والعاطفة والأمومة.. فابتعدي عنهم، إياك والاقتراب منهم.. تنظر لي باستغراب وتقول محتدة:

ـ مهلكِ، مهلكِ عليَّ.. لكني أنا من صنعت القصة، فلم لا تجعليني أكملها..

أخاطبها بلؤم حاد:

ـ توقفي.. لا تقتربي منهم ولا بكلمة.. إن شئت اصنعي لنفسك حلمًا آخر، ولنرَ كيف يمكنك التضحية بأحدهم.. تضحك مني مجددًا وتضع يدها على كتفي وتهمس لي:

ـ دعك من خزعبلاتي فلم أجد تسلية تخرجك من صمتك سوى هذه.. وأخبريني هل ستخبريه؟

أشيح بوجهي ناحية الساعة وأعلق نظراتي على عقربها الطويل لأقول:

في هذا المساء سأفعل..

تحملق فيَّ مبتسمة وتسافر بخيالاتها بعيدًا وكأنها تنسجها من جديد بينما أغيب أنا عنها في عمر ينفرط مني، فيقطع منتصف العقد الرابع ويبقيني بلا أشرعة، وأجول في حياة قدمتها عن طيب خاطر لأسرة أستودعني إياها والداي، فمضى قطار العمر يسير بي دون أن ألتفت لنفسي خلاله ولا للأشياء الصغيرة التي نسيت أنها لي في زحمة السفر.. أختاي «داليا وهدى» قد استقرت أمور كل منهما مع زوج وأسرة.. «ورؤوف» واصل حياته هو الآخر واستقر به المطاف بعد الثانوية للعمل والزواج والأولاد..

الأيام جرَّت بعضها بعضًا في حقول عمري وغاب كل هؤلاء عني في حياتهم.. لم نعد نجتمع كالسابق إلا كل شهر مرة أو مرتين.. ولا هو أيضًا رغم أنه يسكن فوقي تمامًا.. حتى أطفاله قلّ طرقهما لبابي بعد عودتي من العمل في المدرسة.. ربما عملي هو المكان الوحيد الذي تسترخي فيه مشاعري ويمكنني أن أشبع حاجتي فيه للثرثرة مع كائنات أخرى.. ومن ثم «أحلام».. الرفيقة الوحيدة التي تزورني تقريبًا يوميًا حين تفرغ من أعباء البيت والأولاد فتسليني.. لقربها من بيتي..

دقّت الساعة فخفق قلبي كصبية صغيرة.. يطرق الفرح قلبها لأول وهلة.. جلست قرب شرفة النافذة أتطلع لحركة الحي في هذا المساء.. وأسترسل في فكرة الزواج مجددًا بعد هذا العمر هل أحظى برفيق يسير بقربي يمسك بيدي

ويلمّ شتاتي وربما يحنو علي القدر بطفل أو طفلة وربما الاثنين معًا..

فرصة معقولة بالنسبة لي السادسة والأربعون أخطوها بسرعة البرق.. وسنوات تسرقني من فكرتي عن ذاتي في آخر مرة تقدم لي فيها عريس كان يبدو جيدًا لكن ظروفي ما زالت تحكمني.. ربما قبل عشر أو تسع سنوات.. وقتها كانت «هدى» تجهز لعرسها.. و«رؤوف» لازال يبحث عن عمل و«داليا» لازالت تدرس بالثانوية.. وكنت أفكر كيف يمكنني ترك الأمور هكذا وهي ما زالت حرجة، كيف يمكنني الزواج والسفر وتركهم يعتمدون على أنفسهم بعد كل هذه التضحيات، وبالرغم من محاولاتهم المستميتة في إقناعي، لكني كنت مصرّة على أن تستقر مراكبهم على ضفة ثابتة لا متأرجحة، فأطمئن تمامًا لوضعهم وبعدها ليكن ما يكون..

ورغم أن «أحلام» كانت في إطار الحدث معي وأطلعتني على أن القطار سيفوتني إن تخاذلت عن اللحاق به، ولن أجد كل يوم شخص يرغب بأن أواصل معه مشواره لكني لم أبالِ، وكنت أردد لها هذه الجمل لأصرف إلحاحها عني.. أنا مجهدة «أحلام».. من يريد الارتباط بي سيحتاج لطاقتي للسير معه.. بينما أنا لا طاقة لي فهي مستنفدة...

ما من شخص سينتظر كل هذه السنين لأنهي أعبائي ومسؤولياتي ومن ثم أمسك بيده معًا نقطع المشوار..

وحتى إن وجدت شخصًا كهذا يفعل أمرًا يشبه المعجزة، أنا نفسي لن أرضى له بالانطفاء وهو ينتظر تأرجح أموري التي لا يبدو أنها ستستقر. .

تعود وتخبرني أن عليَّ أن أتعلق بأقواس الفرح المارة بقربي، وأن لا أدعها تفلت من سمائي الشاحبة، فالفرح صبره نافذ لن ينتظرني كل مرة ولن يزورني دومًا لأن ثمة من سيستقبله غيري إن لم أفعل.

كلماتها حقيقية، لكنها كانت قاسية على مواجهتي للأمر، وأيضًا مُرّة جدًّا إلى حدّ عدم الاحتمال. . ومع هذا كابرت كالعادة فانتهى الأمر. . حدث وعبر الفرح حياتي دون أن أتسلّقه، دون محاولة حتى لرؤية ألوانه المتدرجة. . دون أن أبرّر لنفسي تفاصيل الامتزاج بداخله. . دون أن ألفّه حولي كشال مطرز أحضر به حفلة صاخبة فأبدو زاهية على غير ما اعتدته من نفسي. . الأشياء التي تمضي لا تعود وإن عادت تصبح بمرارة النقص الذي تركته. . غير مألوفة تمامًا. .

آه. . يا إلهي. . الساعة مرّت كضوء خافت لم أشعر بها. . كم أمضيت من وقت وأنا غارقة في أفكاري بعيدًا عنها. . لقد تجاوزت الواحدة بكثير. . يبدو أن «رؤوف» تجاوز شقتي لبيته كعادته الأخيرة دون أن يطرق بابي، رغم أني أعلنت له استيقاظي بإضاءة الأنوار الخارجية. .

راقبت انفعالاتي الساخنة التي كنت أحبسها لأحدثه برسمية لا تفضح رغباتي. . لقد هدأت تمامًا وانطفأت كأنها

شعلة باردة. . أشيائي الجميلة تذوي بسرعة، حتى الزرعة التي ابتعتها قبل اسبوعين انطفأت الحياة في عروقها وتحولت للاصفرار. .

شعرت بالحزن، فقمت أجرّ نفسي بثقل للفراش وأنا أفكر بالأمر وأمنّي نفسي بأني سأحاول محادثته غدًا. . فغدًا سيكون يومًا آخر يحمل لي قوسًا للفرح حين أقرّر تسلقه. .

الذين نعرفهم يقاسمونا حياتنا
يملؤونا بالدهشة أحياناً
بتصرفاتهم..

يهدونا بدل حبنا إياهم تجاهلَ..
وبدل إقبالنا عليهم إعراضاً..

ويكافئونا بدل علاقتنا بهم
صدوداً..

يختارون البعد بصمت ويتلفون
كل المحاولات الجادّة للعودة..!!

بطاقة دعوة..

ثمة مشاهد تتكرر في الذاكرة تفرض نفسها، ولعل أكثرها إلحاحًا عليّ، حكاية قديمة جرّتني لإعادة فتح دولاب الذكريات ومحاولة الوقوف على نبض الألم.. هناك أشخاص تستغرب رحيلهم المبكر بدون أسباب وجيهة لفعل ذلك، وتواريهم حتى عن التبرير الممكن.. تشتاق بقاءهم حولك ورنين ضحكاتهم المتواصل، وإضافتهم لهالاتك خاصة حين تكون ممسوسًا بخيط الدفء في ذاكرة وحدث جمعك بهم.. لكنك لا تملك ذلك حين يتيبس الفرح داخلك..

أرسلت له رسالة قصيرة.. وعلى خلفية حفنة الذكريات المارة بي.. أخبرته أني أشتاق لاحتساء كوب من القهوة معه، وأني بالفعل أرغب أن أثرثر عن أمور كثيرة فضفاضة أو تافهة حتى، لكن ليس بالضرورة أن أتحدث عن مشكلتنا معًا والأسباب التي أدّت بنا للخصام.. كنت مترددة حين فعلت لاعتبارات كثيرة أعرفها.. وأسوار عالية سيّجت بساطة الحديث واللقاء..

تساءلت وأنا مكتظة بالحزن.. هل يمكن للأحرف أن تنسج حكاية تواصل على خلفية أجواء لم تحظ بتجاوب أو

اعتذار.. إن كان ثمة ما يمكن أن يبرّر الأمور العالقة ويمكنه أن يتلف هذه التعبئة في النفس فهو إن لم يكن عن طريق التواصل والمواجهة فلن يكون بطريق آخر.. في الخلافات تبح أصوات وتعمى البصائر وتمتلئ القلوب بالعمى والرين.. فتثقل عن احتمال صاحبها وقد تجور عليه.. لم تسيرنا ذاكرتنا حيث تشاء دون أن تستجيب لأسوارنا..

لم يكن من ردّ قد وصلني منه.. وكعادتي دومًا في التواري عن جسم الحقيقة أمنّي نفسي بأن ثمة شاغل له.. أكره هذه الطريقة التوددية في حلّ المشكلات لكنها على أي حال أفضل من القطيعة بعد عدة أعوام على خلافنا المفتعل.. ها أنا ذي أعود لأستحضر طفولة عتيقة لكن ملامحها غير مبهمة في الذاكرة..

لم أشأ أن أخمّن، أنه لم يرد.

زوجي وبخني.. لم يصدق أني مازلت أرغب بالتواصل معه بعد كل ما استقبلني به بل بالمزيد منه.. أخبرني أن عليّ أن أقنع ذاكرتي أن تكتفي باختزال بعض الصور فقط بينما الأخرى تحتاج لبتر حتى لا تؤذيني.. كيف يمكن أن نلتقط بعض الصور ونمسح بعضها ومصدرها في الذاكرة واحد.. كيف يمكن أن نلغي التفاصيل وفيها تذوقنا طعم السعادة ومارسنا ألوان المرح واعتلينا دهشة اكتشاف عالمنا الأول، التفاصيل الصغيرة، الارتباك، الشغب، الألفة، الاشتباك.. الأخوة التي لم تنتزع من

نفسي رغم صدوده عن قلبي.. وردّه المتوالي لطرقاتي بالصمت والتجاهل..

بقيت الأمور معلقة لأكثر من يومين.. وهاتفي الخلوي صامت من ردّه.. أو رسائل (مسجات) عارضة أخطأت انتظاري.. ومساحة مهملة من مشاعري لا تجد دفئًا يحتويها.. وأخيرًا صافحني ردّه ولكن ليس كما انتظرت.. وبمزيد من الجفاء ليس إلّا..!!

دون ضحكات.. دون محاولة للتراضي.. لقبول الصلح.. للبدء من جديد.. لتجاوز الخصام.. والكثير من الخيبة لتوقعاتي.. كأنه كان في صراع حول الردّ وعدمه..

أخبرني أنه مشغول مع عائلته.. وثمة فرصة أخرى لتناولها فيما بعد لدعوة أخرى!!..

لا أعرف شكل الكبر تمامًا، لكني مارسته في عمق نظراتها..لم أتبادل وإياها الكلمات فقد كان الصمت بيننا غائراً يعطينا مساحة أكبر لتبادل النظرات المعبرة، التقت عيوننا للحظات، ونصف ابتسامة مرسومة لا تزال على وجهها تخبرني أن إشاراتي وصلتها..

طقوس النهاية..

في يوم جديد لا شيء فيه سوى أنه امتداد لحلقة أيام متوالية تحمل الروتين نفسه وان تغيّرت وجوه المرضى وتشخيصاتهم، غير أن التكرار يفقدنا جمال الإحساس بالوقت.. وجدت نفسي أدخل غرفتها، لم تكن الوحيدة بها، فخمس سيدات أخريات كنّ معها، حيث ترقد قرب الزاوية، بدت يقظة حين دخلت إليها، كان الخارج يضجّ بروتين الأطباء ومرورهم وتقليب بعض الملفات المكوّمة بين أيديهم وعرض صور الأشعة ومناقشة بعض الحالات، إنه الجدل اليومي في محاولة حثيثة لاستمرار الحياة..

ازدحام شديد على حلقة التمريض، بعض الوجوه ربما لا يمكن أن تلتقي بها سوى هنا في قسم الباطنية.. المكان الأكثر جدلًا في المستشفى.. وفي الداخل تبدو الأشياء كالعادة بأوجاع مختلفة، صوت الآهات الصادرة من بعض المرضى يتلوون من الألم، البعض لم يمض ليله براحة كما يبدو، والممرضات يخترقن كل الفتحات بين الممرات لتدور كخلية نحل لا تعرف الكلل، رائحة الدواء تتداخل مع رنين الأجهزة الصارخة في وجه الموت، لا أحبّ هذا القسم عادة فهو مليء بالثقل على نفسي.

شدّني عالم النزاع على الموت والحياة، كأني أرهف

السمع لأصل لتلك التنهدات المضطربة، أصغي لها تطارد الحياة. . اخترقت تلك السحب البيضاء فتقافزت بعض الوجوه إلى رؤيتي كأنها تسجل حضور تقاوم به لحظات الغياب.

حين دخلت غرفتها كان الضجيج قد هدأ بعد خروج جمع من الأطباء. . بدا الكل مسترخيًا أو معاودًا لنومه الطويل أو متصالحًا مع وجعه لحين يكفّ عنه أو يهدأ، فبدوا كمن ركنوا عقولهم جانبًا وراحوا يحلقون في فتنة اللاوعي. . وحده السرير الرابع من كان يسبح في فلك آخر، كأنما يسبح في ملكوت الكون، مكانه عند النافذة تمامًا، اقتربت منه، كانت ترقد به سيدة مسنة، عجوز تربو أعوامها على الثمانين عامًا أو أكثر، يوقظها ضجيج الألم من فراشها فتبدو كتكومات لأغطية وملاءات السرير، تشي ملامحها في هدوء شديد مختلف عن رفيقاتها، كان وجهها مليئًا بالتجاعيد وإن بدا مشرقًا على غير ما يمكنه أن يكون، ربما لا تستوعب ما يجري حولها لكن بها شيئًا شدّني نحوها، رفعت لها كفي ملوحة بالتحية، كان كل شيء بها (مكرمشًا) حتى ابتسامتها، أشارت لي لأقترب ففعلت ووجدتني أتأمل تفاصيل وجهها تبدو في شبه وداعة طفولية غير أن الخطوط الزمنية تملؤها، ابتسمت لي فتعلقت نظراتي بعينيها ولا يبدو أنها ستفهم كلامي لها فقد كانت هي الأخرى مكومة بهدوء وسط سريرها معلقة شفتيها بين الموت والحياة في ذوبان متناهي. . تبتسم كالأطفال ابتسامة لا تحتفظ بتفاصيل الأسنان فقد أسقطتها السنون، أشارت

لي بالاقتراب رافعة لي يدها بنظرات صامتة تترقب استعدادي لمنحها يدي أنا الأخرى، لمستها بحذر خشية أن أكسرها، بدت كعود نحيل من الخشب اليابس، محفور بنقوش التجاعيد المتدرجة، خطّت السنون عليها معالمها، شعرت برغبة لدعكها ولم أكن قد جربت لمس التجاعيد من قبل لإنسان في مثل عمرها.. كانت ضئيلة للغاية.. بتردد قرّبت منها أصابعي ربّت عليها بدفء وبحذر، فقد كانت ضئيلة وهشة كعود قش يابس.. أردت أن أهبها إحساسًا بالطمأنينة..

وتساءلت:

ترى، كم الفارق بين عمرينا.. يبدو كبيرًا للغاية، أردت أن أقول لها لا تشعري بالوحدة، لا أدري هل وصلها هذا الإحساس الذي أردته أم لا.. لكني أحسبه حدث فقد كانت نظراتها معلقة بي ونصف ابتسامة مدركة تبادلني إياها. لا أعرف شكل الكبر تمامًا، لكني مارسته في عمق نظراتها..لم أتبادل وإياها الكلمات فقد كان الصمت بيننا غائرًا يعطينا مساحة أكبر لتبادل النظرات المعبرة، التقت عيوننا للحظات ونصف ابتسامة مرسومة لا تزال على وجهها تخبرني أن إشاراتي وصلتها.. رأيت في عينيها كل صور الراحلين عني تجوب بداخل نظراتها للعالم من حولها.. كان الجميع يسكنها بهدوء متناهي.. بأرواح حرة تطفو لتعانق السماء.. ولأن هناك مسافة بين الحقيقي وتخيلاتي فقد رحت أتأول لون وجهها.. كان أبيض مصفرًا بتحولات المرض، وراحت هي تتطلع لوجهي بالتعابير

نفسها وكأنها لا تعي ما يعكسه وضع وجودها هنا، لدقائق بقيت يدي تمسك بيدها.. كنت قريبة جدًّا من تلك الخطوط الزمنية المبعثرة على وجهها.. فقد لامستها في رخاوة يديها.. بقيت معها لدقائق على هذا الوضع، أظن أنها تلقت إشاراتي فقد كانت نظراتها تشي بهذا، شعرت بأنفاسها وهي تتقطع، بينما أصابعها تدقق على نبض قلبي.. لم أراها، فقط حاولت أن لا أقلق هدوءها وهي تتأملني، ظلت لدقائق قليلة هي كل ما تحتاجه تتأمل تفاصيلي الجديدة عليها، إلى أن نامت في عيني بوداعة طفل صغير..

ومن ثم ربتّ على يدها وخرجت.. تركتها وأنا ما زلت أتطهر من أفكاري وأحمل بداخلي مشاعر شتى بها تباين غريب وشعور لم آلفه من قبل ينتزعني مما حولي؛ كأنه خليط من الرضا والألم والاطمئنان والخوف تجلله سحابات القلق، بقيت خارج ذاتي كل الوقت وكانت الكثير من التساؤلات تتفاوض مع نفسي لتصل لنتيجة، إحساس غريب داهمني وأنا أفعل، كنت أتساءل.. لو قدّر لنا ممارسة الحياة حتى نبلغ أرذل العمر فمن يمكنه أن يحتملنا في كبرنا حين يختفي الأهل والأولاد، وتحل سحب الغيمات فوق ما تبقى من ظلال الأيام لتمطرنا ونحن نستلقي هناك على أسرة بيضاء تكتسي وجوهنا بصفرة الرحيل..

ينتهك الموت وحدتنا دونما فرصة لوداع الأحباب.. هكذا تصلني أفكاري حين تطوف بعالمهم.. أدوية وأجهزة

وأطباء وممرضات ونقاشات شتى وأنفاس تتردد تراوح الرحيل وتغيب حتى تعود.

لا أعرف هل ستمرّ الأيام وأفكر بأحدهم يشاركني طقوس الانتهاء من هذا العالم أم لا . . مرعبة تلك الفكرة حين نفكر بها . . أن نموت وحدنا على سرير بارد . . . لم أشأ أن أوافق مخاوفي، فقط أردت أن أمضي لباقي غرف المرضى لنسيان الأمر، علِّي أفلح فيه . . . .

ازرعني حيث أنا.. حيث تربتي
حيث أموري تستقيم.. حيث أبدو
بحركة ذاتية لا تشدّها خيوط
بهلوانية (ماريوشوت) تحركها
عبر شدّ وانبساط.. كأنني دمية
ساذجة معلّقة في الهواء..
يحركها أبله أو معتوه..
أو شخص بغيض وممل فقد
توازنه في الحياة...

عفوك.. لقد توقف الألم..

لا تنظر لي هكذا. . لست بحاجة لتبريرات أكثر لأخبرك عنها. . لا تسرق عمري وتدّعي أنك نادم. . . فعفوك. . لقد توقف الألم عند مفصل القلب. . لا تقلق لم أعبث بأشيائك. . ولم أداهمك لحظة غفلة. . كنت أسترق النظر فقط. . نعم فعلت ورغبت بمتابعة السطر الأخير الذي كتبته حتى اختتمته بشهقة. . فقط توقفت عند حافة تلك الكلمة التي تسلقتني بالدهشة. . يوم عبرت عن خوفك، عن قلقك، عن ردات الفعل التي ستواجهك ولست تدري كيف حصلت. . .

كنت تقرأ كلماتها مرارًا، كأنها تعويذة تحصن نفسك بها، يومها تيبست الحروف في حلقي. . لم أصدق أنك ستخذلني. . حين واجهتك قلت إنك لن تفعل وأقسمت أن ما رأيته مجرد وهم، ولن تخيب أملي. . تجاوزت الأمر لأني وجدتك تهتم بزرع الابتسامة في نفسي. . الاطمئنان على سير الحياة معي. . تجاوز الزمن بحلقة الفرح. . تأكيد المعاني الجميلة التي غابت بداخلي فبدأت تحتضر. . وأشياء كثيرة لست أحصيها. . لكني أيضًا لم أنس أنك تتعمد عدم الوضوح في تصرفاتك. . تشرد كثيرًا وتسافر بعيدًا عنا. . تغيّر الحديث كلما سألتك عن معنى ما يجري حولي. . تشقلب المواضيع حين أصرّ على الفهم. . تخوض

في العموم دون التفاصيل، وتتجاهل ارتباك أسئلتي لأسكن مشاعري المهتزة.. دسست في ذاكرتي حفنة أشياء قديمة كانت تجمعنا فطوتها الريح، وأكّدت على مشاعري لأحتفظ بها.. احترت أين أضعها.. أين أخفيها، فأطلقت روحي لتقبض عليها.. تلازما حتى خلت أنهما كقطعة واحدة وأي إيذاء لإحداهما هو إيذاء للأخرى..

اتفقنا بعد عراك وخصام دام طويلًا على أن ننهي سجالات الحرب معًا.. مقتنع أنت بما لديك.. فأنت تفكر كرجل متحرر كما تطلق على نفسك وتحبّ هذا التحرر الذي لا تضع له حدودًا، وحريتك تقتضي حق العاطفة وحق الاختيار رغم أنك تبدو مشدودًا برباط آخر لكائنات تتناصف ظلك في مجتمع شرقي لا يرحم الشريك الآخر ولا يعطيه حق الدفاع عن نفسه.. وافقت على مضض.. لأني أعلم أن الرعونة أمر يحملك إليه طبعك المتضارب ومزاجك المتشقلب.. كأني أقرأ كتاب حياتك ومراحلك فيها وأسباب التقلب المزاجي الذي تعيشه.. فعلت لأنك ابن عم لي قبل أن تكون حبيبًا وزوجًا.. لكن هذا لا يعني تنازلي اطلاقًا عن رغبتي في إيقاف الألم، وتعرف هذا.. فلم تضايقني الآن.. لمَ تتعمد قتل بتلات الورد التي غرسناها معًا.. لمَ تشعرني بالخيبة كلما علقت أملًا جديدًا في حديقة الصمت التي تعيشها.. لمَ أصبح حديثك مقتضبًا وصدرك ضيقًا عن احتوائي وصغيراتك.. لمَ ابتعدت وبدأت تشغل عالمك بأشياء مختلفة عنا.. لمَ كلما طرقنا بابك تجاهلتنا بنفاد صبر لم نألفه منك.. لمَ كلما حاولت

أن اقترب باعدت المسافات بيننا. . كأننا مد وجزر لا يلتقيان. . كنت تفعل عامدًا. . تتشاغل بأشياء لست متأكدة من كونك تحبها. . ترحل وحيدًا حتى وأنت معنا. . تتقمص الفرص لتغيب عن عالمنا حولك كأنك تسافر عن عمد. . تعيش في متاهات مختلفة. . يومها كانت إحدى صغيراتك بقربك. . تشاغلك كعادتها بدميتها القطنية. . ربتَّ عليها في حركة سريعة لتُعلِمها أن تبتعد عنك تمامًا، وحملت نفسك للخارج ورحلت. . غبت وقتًا حسبته دهرًا. . فتيقظت كل تحفزاتي ووجدتني أنسحب أنا الأخرى وراءك. . كنت بالحديقة تركع على الأرض بعفوية طفل فقد حلواه فبعثرها فوق التراب. . اقتربت منك خلسة. . وبدأت أعد خطاي مثلك وأعبث بالتراب كأني أغرس نفسي في حديقتك لعلك تنتبه لوجودي. . يومها أوقفتني وأمسكت بذراعي. . شعرت بخفة غريبة كأنني ريشة تحركها الريح. . اجتاحتني رغبة عارمة من الضحك. . تندرت عليك حتى كدت أقع على الأرض. . استغرق الأمر عمرًا ووقتًا. . أشبعت روحي من الضحك. . ما كل هذه التصرفات المتداخلة في شخصك. . كنت غاضبًا لنملة صغيرة أدهسها. . ما لي أنا وما للنمل وعوالمه. . دعها تمرّ. . كنت تخبرني أنك تتأمل عالمهم بإعجاب. . فتجاوزت حبك لهذا العالم الصغير ودهسته دون أن أقصد. . فعلت دون أن التفت لكمّ الحزن الذي هطل عليك فجأة. . ابتعدت عني بمسافة خطوات بينما نفسك تراخت وكسلت عن رفقتي بمسافات أزمان سحيقة. . بكيت كطفلة بلّلها المطر. . اعتذرت منك حتى تمرّر الأمر

بلا خسائر بيننا ففجواتنا تزداد عمقًا واتساعًا. . لكنك تجاهلتني حتى شهقت حروفي عند خيبة توسلاتي. . لم أكن أدري أن قلبك يخطط لأمر آخر. . أمر يهدر كل ما بيننا في لحظة. . سألتك عن دواعي غضبك مرارًا هل يستحق الأمر كل هذا العقاب، بذلت قصارى جهدي لكنك لم تساعدني. . أما أنت فاكتفيت بحكاية صاخبة تعيش فصولها وحدك كموجة من موجات تقلبك الدائم. .

لست أدري لِمَ عليَّ تحمل طباعك المتأرجحة بمزاجيات دائمة، بينما لا تحسن أنت أن تفعل حين تجرّ الخيبة بداخلي جرًّا وتميت كل ما بيننا. . تُهمتي الصمت أو العقل. . وتُهمتك القدر أو القهر، المكانة الاجتماعية التي يساومونك بها عادة على تصرفاتك. . أتدري. . أحيانًا أضحك. . أسخر من واقع مخاتل يفرض نفسه. . حين أراك تتأطر بإطار ليس لك. . أرى حكمتك دهاء وصبرك ادعاء وفلسفتك حيل مواربة. . الناس تراك أمرًا وأنا وحدي أراك أمرًا آخر. . بئيس واقعك وحالك مريض، وحتى أفكارك مترنحة وتبنيها وقتيّ سرعان ما تتركها وتنصرف. .

آه. . الضوء ينحسر عني. . . لكني لا أشعر بالعمى. . أبدو كمن يرى الأشياء بالظل. . صحيحة كما هي. . بريقها المعشي خفت. . وبهرجتها انطفأت. . لكنها لا تبدو سيئة. . أراها هكذا أفضل صحيحة مجردة من اللبس ومن التزييف. . نعم، هو ذاك سيدي هو ذاك. . قراري الذي انتهيت إليه الآن بعد كل ما جرى، فما حاجتي إليك بعد كل هذا، ما حاجتي لجدار لا يسندني حين تهتز

دنياي ولا لقلب لا يدفئني وأجوائي شاتية، ولا لنفس لا تحتويني وهي تنتصف حياتي. . . كفاك افتعالًا للمشاعر. . أمقت هذا. . لا تشدّ على يدي الآن لتواسي خيبتي فيك فأنت وحدك من صنعها. . أنا أدري أن بحياتنا الكثير من الأمور التي مرت علينا وانتهت كبريق خاطف بعد أن نالت منا. . ربما بعضها مبهج وبعضها شجي وبعضها يعصره الألم. . لكن ما نحن فيه أكبر من الاحتمال. . ليس بعد أن هدمت جسورنا. .

هل تعرف منذ متى وأنا أتساءل عن أسبابك الحقيقية للانطفاء. . للابتعاد عن عالمنا. . للبحث عن بدائل مؤقتة أو حتى دائمة لتستقر عليها عاطفتك المتأرجحة. . عاطفتك المشحونة بكم من مشاعر غير مستقرة غير صادقة الدفع ولا مستقيمة الخطى. . كنت أقرأ في كتاب للصغيرة ذات مساء. . أثرثر معها كأم تحبّ طفلتها. . فوجدتك تدخل غاضبًا. . تختلق أسبابًا للثورة. . تريد أن تزيد الصدامات بيننا. . قلت أشياء كثيرة وكلامًا لم أفهمه. . تحدثت عن زر قميصك المكسور، وعن كتبك وأبحاثك وعملك ورفاقك ينتظرونك بالخارج. . . ولكنك لم تتحدث عنا. . عن الناس الذين يعيشون معك في بيت واحد. . لم تترك لساعاتك وقتًا تمنحنا إياه. . كأننا صور تتنفس تعلقها في جدران بيتك بزوايا وأركان وأوضاع تقررها أنت وحدك دونما سبب لخياراتنا بها. . ما الذي تريده الآن بعد كل ما جرى. . لا تفهم الأمور كما تشتهي وتنبئنا بكيفية اتخاذ قراراتنا. . كأنك تمليها علينا. . كأنك مسؤول عن رسم عالمنا وعن

اختياراتنا.. كأننا مجردون من الرغبة والحب والكره معًا.. أو كأننا لا نحسن فهم أحاسيسنا دون إضاءتك.. قلت لك مسبقًا.. ازرعني حيث أنا.. حيث تربتي حيث أموري تستقيم.. حيث أبدو بحركة ذاتية لا تشدّها خيوط بهلوانية (ماريوشوت) تحركها عبر شدّ وانبساط.. كأنني دمية ساذجة معلقة في الهواء.. يحركها أبله أو معتوه.. أو شخص بغيض وممل فقد توازنه في الحياة...

ما الذي كنت تتهمني به.. الصمت.. أم الحكمة.. أم الاستقلالية.. أم الحزن.. أم التجاوز عن كل مزاجياتك... وقد كنت تحتفي بنا وبحياتنا معك.. الناس جلّهم يطمحون للاستقرار.. يريدون أن يهنؤوا بحياتهم وأسرهم وأنت تتأرجح في الهواء كأنك طائر هدم عشه وجلس يبكيه.. أوقات كثيرة أتساءل والصغيرات عنك.. لا أحسن أن أجيب نفسي فكيف أمنحهن إجابة عن والدهن المتغيب عنهن فكرًا وجسدًا ومشاعرَ..

الآن.. بعد كل هذا.. أترك لي فرصة لأعيد ترتيب أوراقي.. لكن لا تتفاءل كثيرًا وأنا آخذ وقتي.. فالخيبة بداخلي تشقّ لي طريقًا واحدًا لا يمكنني تجاوزه لأني سأفقد نفسي إن فعلت.. وحين أفعل لن أعود كما أنا التي عرفتني سأبدو ككيس هواء منفوخ يتطاير بالهواء وتتلاعب به أشرعة الريح.. ولا تهتم لما سوف يحدث.. ستسير بك الحياة على أي حال وستسير بنا كذلك معك.. فالآن فقط توقف الألم على الأقل بالنسبة لي..

لم يبق شيء من صورهم في ذاكرته، غير أكياس مطرزة ممتلئة في انتفاخ ظاهر بقطع الحلوى واللوز والفستق، وبقايا من أسوار الحي القديمة يلتف حولها رجال يفترشون سجاجيدهم، ومسابحهم تدار في أصابعهم بخشوع في صلاة كانت تراتيلها تعبق بالمسك.

فوانيس لا تعرف الضياع..

كانت أمه تلبسه ملابسه الجديدة وتعلّق خراجه الذي صنعته له وزيّنته بأشرطة الصوف الملونة حول عنقه، همست في أذنه بحب توصيه أن يمرح مع رفاقه وأن لا يبتعد كثيرًا... ولم تنس أن تطلب منه أن يتمنى من الخير أكثره، فعلى باب الله يقف الفقراء هذه الليلة، لأن أبواب الرزق فيها مفتحة والكائنات تحتفل لتنسج ذكرى فرح تحتفظ بطعمها...

خرج مع رفاقه تتقافز خطواته مع سكون الليل الباكر، وجد نفسه وسط شارع طويل يتحرك فيه بحرية مع فراشات صغيرة تبحث عن ألفة الفرح، وبلحن هادئ كانت تتغنى بتمايل ينعكس مع إيقاع فلكلوري جميل، تتراقص حول ضوء ممتد بعطر ينبعث من أبواب البيوت تسبقها أبواب القلوب لتتلقاها.

ناصفة حلاوة على النبي صلاوة

تسابقوا مسرعين ينشدون أهازيج جديدة تتقافز ألحانها على ألسنتهم ببريق يشبه جِدة ملابسهم الملونة بل أبهى... كانوا يدورون حول بيوت الحي وأزقته الضيقة، يزرعون روح العطر بأنفاسهم أينما حلّوا، يجمعون الحلوى ويتباهون بكثرتها في أكياسهم، وكانت الأضواء تقودهم في

ظلمة الليل لأهدافهم فثمة منازل تمتاز بعطاء أوسع عن غيرها يسابقون بعضهم في الحصول على النقود والسكاكر.

وفي غمرة جو الفرح، تمازح الصغار في لحظات مشاكسة متوارية تتبعثر في سنين طفولتهم الخجلة، فتشابكت أيديهم في أكياسهم ببراءة وادعة، فحُلّ رباطه من عنقه وهم يتداعبون فتبعثرت حلواه من كيسه، انحنى ليلتقط بعض الحلوى المتناثرة على الأرض، لم ينتبه لمكوثه الطويل هكذا، فاختفى رفاقه عنه.. ثمة شيء يشدّه للبعيد، يغريه لأن يستكشفه، تاه عنهم بعيدًا.. لم يستطع تتبع أثر أصواتهم.. توقفت خطواته خارج حدود قريته فضلّ طريقه عنهم.

لم يبق شيء من صورهم في ذاكرته، غير أكياس مطرزة ممتلئة في انتفاخ ظاهر بقطع الحلوى واللوز والفستق، وبقايا من أسوار الحي القديمة يلتف حولها رجال يفترشون سجاجيدهم، ومسابحهم تُدار في أصابعهم بخشوع في صلاة كانت تراتيلها تعبق بالمسك. بدا الظلام كثيفًا فلم يستطع رؤية هوية المكان جيدًا، توقف الهمس فجفل مكانه وتوسط الرعب قلبه، شعر بالذعر يتسارع في نبضه وهو لا زال واقفًا على أبواب بعض الخرابات في أطراف حيّهم القديم، نادى أصدقاءه ليتداركوه، لكن لا أحد منهم كان يسمع نداءه...

رجّه صوت الصدى، فانزوى في مكانه باكيًا يدعو أن يعود لأصحابه سالمًا، وتذكر كلمات أخرى كانت والدته قد حدّثته عنها هذه الليلة وعن حياة كان الناس يعيشونها في

أكواخ فقيرة، كما حدّثته عن ليلة تتزين بفوانيس تكسر الجوع. . فوانيس توقد من لون الشمس يعلقها الليل بجيده فتنعكس بهجتها في وجوه الصغار، وعن قصص وحكايات أخرى تحدث للناس، أو حدثت فعلًا فلم يعرفها أحد، كان يستعرضها ويتوسم منها أنس يقطع به حبل الوحشة التي تسللت إليه فجأة.

توسلت ملامحه السكون المنطفئ من حوله، فارتسم الحزن داخل روحه المرحة، حدثته نفسه وهو ما زال ينتظر أن يستنير طريقه بحكايات وقصص كثيرة متداولة، فوقف بقامته المتضائلة يعيد نسج الأسئلة من حوله:

يقولون إن النور يمشي على قدمين، يقولون إن حياة البؤس ستندثر، ويقولون إن هاتيك البيوت الضعيفة ستمتلئ بالضحكات الرنانة، وأن جوعها سينكسر، وسينشر الخير والحب والسكينة والسلام. . يقولون أن لا فقير ولا غني سيتمايز فجغرافية سكانها ستتغير، ولن يبقى للظلم سلطان على رقاب المستضعفين. عادي ينادي بعد أن بدأ صبره ينفد:

ـ يا إلهي أعدني لرفاقي سالمًا. .

مكث مليًا حيث هو، حتى تراءت له شعلة ضوء من بعيد، فأصغى لأصدائها كوميض برق، تهتف بشعاع الأمل داخل قلبه، اقترب أكثر، كان يدير رأسه الصغير في أرجاء المكان ويلتفت يبحث عن رفاقه الذين ابتعدوا عنه.

على حافة الطريق وجده واقفًا ينتظر، بدا له من أول

وهلة رجل جليل، خطواته تستند هيبة يعكسها وجهه الباسم كضوء القمر، يحمل فانوسه بيده، يوزع ابتسامته وفي يده الأخرى خراج يمتلئ بقطع الحلوى.. جفل منه أول الأمر، لكن الاطمئنان غزا قلبه كوميض البرق الخاطف.. مدّ طرفه نحوه، تأمل نظراته الدافئة وبياض كفيه الظاهر.. استكان بهدوء حين صافح خطواته تكنس الدرب نحوه بسكينة فاستجمع شجاعته وأقدم يخاطبه مرتجفًا:

ـ يا أيها الرجل الجليل، أرني الطريق فقد ضللته، افعل ذلك من أجلي يا سيدي...

ثم أشار بيده نحو البعيد وتابع يقول:

ـ أصحابي تباعدوا عني وتوزعوا خلف البيوت، كنا نلهو معًا فتناثرت الحلوى على الأرض ووجدت نفسي هنا بعيدًا، وأريد أن أعود لهم فأمرح معهم هذه الليلة.

اقترب منه الشيخ، تفحصه مليًّا وقرّب منه فانوسه وطمأنه، نثر في وجهه ابتسامة دافئة، أسكن روعه بطمأنينة، أعطاه بعضًا من قطع الحلوى... وهو يشير للطريق أمامه قائلًا:

ـ لا تخف يا بني، ففي داخلك يغتسل النقاء، واعلم أن بعض الحقائق تستظل بالحلم حتى يحين وقتها فتكون.. ذاك هو الطريق الذي جئت منه.. هل تراه جيدًا؟ هل تحسّه ببصرك؟ اذهب إليه إذًا.

خطوات فقط هي التي مشاها الصبي مبتعدًا يراقب اكتمال البدر في كبد السماء، ظن أنه يعتلي تلك النجوم من

حوله فكأنه يحدثها وتضاحكه، وأخيرًا التفت ليجد نفسه وسط رفاقه..

عاد إليهم وهو يبتسم وفي يدهٰ قطع حلوى يحسبها من حلوى الجنة، عاد يتدفق مع أصحابه يضيئون ليل النصف من شعبان وهو يغني معهم ويشدو أهزوجتها ويشكل نغماتها فوق سلم موسيقي حلو الألحان

ناصفة حلاوة

على النبي صلاوة

ناصفة حلاوة

كريكشون

حلوا الكيس وعطونا وعطونا وعطونا

الله يسلم وليداتكم سالمين غانمين

ناصفة حلاوة

كريكشون

كلمات الرجل كانت تنقش نفسها بداخله في سجل احتفظت ذاكرته به مع تقادم الأيام، وكان إيقاعها أشهى حتى من قطع الحلوى التي حصدها فيما بعد، اقسم أنه سمع كل ذلك منه، وظن أن ما حدث معه ليس مجرد صدفة... مازال طيف تلك الليلة متقدًا في ذاكرته يزوره كلما مرح في ذاكرته نشيد طفولي ينتصف ليلة الناصفة يحمل للناس فوانيس لا تعرف الضياع...

لطالما وجدت أنا المسافات ضرورة للتنفس.. لتبديل الجراح.. للتمدد بوجه الوقت.. لاستجلاب السكون.. لمنطقة الأشياء.. لمصادقة الواقع.. ليأخذ كل منا وقته.. ليشاهد صورته كيف تُبدو بالمرآة دون محاولات تجميلية تبرز العيوب.. حين نقترب نغترب.. تمامًا كمن يلقي علينا التحية كل ساعات النهار.. لا نعود نهتم للقياه فقد امتلأنا من تحاياه التي لا تبرير لها واغتربنا عنه بأكثر مما نألف.

ذات وقت سأنفي أني أعرفك...

ذات وقت سأنفي معرفتي بك تمامًا.. وسأقسم لك أني انتهيت منك.. سأخرج أوراقك القديمة من درجي وسأنفضها من ذاكرتي بلا رجعة.. سأرميها للريح أو للنار على حدّ سواء، فلطالما حملت رسائلك في داخلي طقوس الوجع...كانت معرفتي بك في ظروف باهتة.. تشبه الظروف التي يمرّ الناس بها عادة.. كنت كل مرة تصرّ أن نوثق علاقتنا بأبعد من حدود المعرفة العادية.. تطلب هذا رغم أنك تدرك أننا مختلفان تمامًا كمد وجزر لا يلتقيان.. جرحتني بكلماتك فتناثرت بهجتي الأولى بك.. بعدها تجاهلتني كأنك غريب لا يعرفني.. ومضيت تشقّ لك مساحة في دفاتر الأحداث بعيدًا عني... فتساقطت بواقي هالات الضوء التي علقتها بك. هل تذكر حديثك الأول معي.. كان حديثًا تعبئه اللهفة ويطرّز تفاصيله الانسجام.. جمعتني بأمنياتك، كما تجمع أشياءك التي تتحصل عليها عادة.. لففتني بحديث ساحر ذات وقت قلت لي إنه لا يمكنك الاستغناء عني على الإطلاق..

سألتك: ولم كل هذا...؟ قلت: صرتِ قريبة جدًّا حدّ اللهفة.. لم يعد الاستغناء عنك أمرًا ممكنًا بالنسبة لي.. ولست أطيق الحياة دونك.. عدت أسألك وأنا أرنو

لضوء حروفك يغزوني فجأة دون مقدمات وكأنني أستطلع صحة مصدره: ما جدوى كل هذا.. وإلى أين تؤول الأمور، ما دمت لا تعرف أين تضعني من قلبك ومن واقعك المختلط المتشابك الاتجاهات.

صمت.. وليتك لم تتحدث...كان صمتك مهيبًا.. وأنت تحاول أن تشغل من نفسي مساحة مختلفة.. تطلب سكنًا لا يمكنك الإعلان عنه ولا إعطاء الناس عنوانه.... عندها أدركت أمرك... فأنت تريد أن تكون كل شيء في وقت واحد بلا مقدمات.. أن تسافر في قصائدي.. أن تستوطن ذاكرتي.. أن تخفق بداخلي كمجنون أرهقه الحب... أن أطلق حروفي تقتفي أثرك دون أن تبادلني بالمثل.. فهل تسمي هذا إنصافًا وعدلًا..!

ولاحظت اختلافك عني.. اختلاف بيِّن نكاد نتجاهله حين تسرقنا اللحظات الحلوة نريد استبقاءها أطول وقت ممكن.. فأنت تعشق الارتطامات الكثيرة.. تسعى لتكريرها بحياتك.. وتحاول نفيها حين تسأل عنها فتبدو بمثالية زائفة.. تجبر الشروخ وترتقها ليستمر صوتك المهيمن يدوي عاليًا.. لا يمكنك أن تعيش بلا صوت عال فواقعك يحيق بالضجيج.. تجيد فتح الفجوات وتنقيط الأسطر والانتهاء من حبك القصص التي تبدؤها عادة كل مرة تقرر أن تفعل.. لا شيء يجبرك على استكمالها فأجندتك متخمة بأحداث جديدة وشخوص تنتظر دورها البطولي المتفرد في واقع حياتك المكتظ.. وكل مرة تظهر بوجه جديد مختلف عما قبله.. وحين أسألك عن التفاصيل.. تُحسن اقتناء

الأقنعة وتشكيلها وفق مزاجيتك العالية وكأن خزينتك متخمة بها . . .

أما أنا فمختلفة عنك تمامًا . . أتذكر كيف حدثتك عن نفسي في حديث مسهب دار بيننا، قلت لك: لست أجيد تلوين كلماتي ولا تنقيط الأسطر التي بدأتها كما تفعل، دون أن أصل لمرساها فأدعها تسكن مطمئنة . . . وغير قادرة عن التواري من وجعي كأنني أجهله، ولا أحسن هشّ الحزن عني حين يداهمني . . كما أني لا أطيق توديع أشيائي الصغيرة . . وحتى محاولات النسيان التي أقرّرها، تبدو مستهجنة وغير مجدية . . كأمر مستبعد لذاكرة تنشرني بصفحة السماء تتركني عارية من محاولات التستر لنسج الوجع . . وربما ألوّن جرحي بالضحك والحديث طيلة الوقت . . أثرثر طويلًا لأقترب من عالم الحزن أو أعود لعالمي بربكة تشدّني للوراء.

توقفت معك وقتًا حول رمزية الأحلام . . حول إجادة السباحة والغرق . . حول الجرأة في خوض ما نريد والجبن والتواري حتى عن الإفصاح به . . مجرد الإفصاح عما نريد . . . وكنت تبدو شاردًا . . أو صامتًا كعادتك كل مرة أسكب بواقعك حقيقة ما يجري حولي . . حتى حسبتك كتمثال أبي الهول لطول صمتك . . . قلت لك همسًا كأني أخشى سرًّا أفشيه:لست امرأة خيالية يمكنني أن أقبض على الحلم بنظرة واحدة من عيني فأحيله لجنة أذوب داخلها . . . ولست متوهجة بالحديث والكلمات الملفتة كما تحسب . . كما وأني لا أبدو استثنائية وخالية من العيوب . . . أنا امرأة

مجهدة من التحول.. من التنصل.. من كثرة الكلام.. من صياغة الوعود ومن تلبسها.. من التجاسر على الحب والألم والعذاب معًا.. من خرق الفرح من تلوين القلب.. ومن الجري وراء المستحيل.. ومن الانتظار الطويل بلا وقت محدد... أنا امرأة أعيش الوقت والواقع معًا.. أدرك أنك مرحلة مؤقتة.. وأني محطة من محطاتك الكثيرة العابرة.. اعترفت أنك عاجز عن احتوائي.. وعاجز أيضًا عن الاحتفاظ بي.. جادلتني مرة أو مرتين وكأنك تجرب أدواتك معي لتثبت لي أمورًا بُتَّ أعرفها.. كأنك تقطع المسافات وتشغلها بتجاوزات وقتية حتى تسكرنا اللحظة التي نشغلها.. تحكي عن أفكار سطحية عائمة.. عن تمازج غير ممكن.. عن فرص نسرقها من عمرنا لنعيشه.. عن ضيق ذات اليد وكثرة الزحامات بحياتك، وعن ارتجاج الواقع من حولك.. لكنني أنا من صمت هذه المرة فطال صمتي.. لأنك نسيت في كل هذه النتوءات التي تحاولها أن تحتفظ بكرامتي وأن تسدّ بي عين الحقيقة... فعدت تهزني لأصحو.. لأقول شيئًا لك.. لأصفح عنك أو ألعنك وأبدي سخطي.. لكي لا تموت لغتنا وتتجمد عند حدود الخيبة.. تدرك أن الخيبة مآل موحش لعلاقة صبغتها ألفة ولفّها ضوء احترام متبادل... أو هكذا حسبناه...

قلت لك أخيرًا كمن يصحو من نوم مزعج:

ـ أنا امرأة تعرف كل شيء رغم بساطتها وإن بدت البساطة تهمتها الأولى.. وتدرك حشرجات الأشياء وتميز بين صدقها وكذبها حين تمرّ بها.. أحلم.. ربما.. لكن

أحلامي غير معقدة.. غير مفتعلة.. وحين ينشغل العالم كل بحلمه لن يبدو تحقيق أحلامي أمرًا مستحيلًا.... فلماذا تصرّ دومًا على أن تملأ الفراغات الصغيرة بين عالمينا.. تقترب من عالمي فجأة دون استئذان كأنك برق خاطف أو ريح عاصف.. أتعثّر بك كلما تلفت كأن معرفتك فرض واجب.. تربك وقتي.. تربك حصيلتي.. تربك توقعاتي.. تصيبني الخيبة فأرتشف الملح... وأغدو مستحيلة السكون.. أعرف أنك كل مرة تصرّ دومًا على تفكيك الأشياء الصغيرة وكشف الخبايا لتفتح المغلق.. تتلصص عليها بحواسك المتأهبة.. وحين تجد أنها بخلاف ظنك.. تفقد الأمور بهجتها لديك فتنسحب عنها.. كطفل مدلل يستمتع بكسر لعبته الجديدة ليرى ما بداخلها دون أن يهتم لأمر تحطيمها..

لطالما وجدت أنا المسافات ضرورة للتنفس.. لتبديل الجراح.. للتمدد بوجه الوقت.. لاستجلاب السكون.. لمنطقة الأشياء.. لمصادقة الواقع.. ليأخذ كل منا وقته.. ليشاهد صورته كيف تبدو بالمرآة دون محاولات تجميلية تبرز العيوب.. حين نقترب نغترب.. تمامًا كمن يلقي علينا التحية كل ساعات النهار.. لا نعود نهتم للقياه فقد امتلأنا من تحاياه التي لا تبرير لها واغتربنا عنه بأكثر مما نألف.

قلت كل هذا فتجاوزتني بالصمت مدة حسبتها طويلة فمرّ الوقت ثقيلًا عليَّ وأنا أنتظرك حسبتك عين ماءٍ ممتدة فغرست في صدرك أوتاري ورحت أغني بصوت عال ولم أخش رجيع صوتي.. أكنت تحسبني أتحامل عليك.. أقسو

مثلًا!.. حين واجهتك بما في داخلي.. وحدثتك عنه صراحة...

ليس الأمر هكذا... لكنها قسوتك أرهقتني فبدأ صمتي يغادرني لفراغ الممكن.. ينهض من مكانه يغادر ركاكة المألوف.. وبدأت تحتدم المسافات بيننا في تداعيات كثيفة كسماء رمادية غطّتها أسراب الغيوم بالفوضى... بدأت رؤيتي تختلف عن صورة عرفتني بك فوجدتها مع تداعيات الرحيل الذي ترسمه تتشكل بداخلي كفجوة تفصل بين مسافتين لا تعرفان خطًّا للتلاقي..

سأل عنها حين تفقّدها، سمعت
والدته تحدّثه بالأمر بصورة
عابرة.. خيل إليها أنه كان ثائرًا
يرفع عصاه ملوحًا بها ويهدّد
بالقتل.... الصوت كان بعيدًا
عنها، أو أنها من شدة خوفها
انفصلت عن الإصغاء لذبذباته
ولم تفهم ما يجري بالداخل..

اندلقت القهوة..

بدأت نهارها متثاقلة كالعادة، تتململ في فراشها بعد انصراف زوجها لعمله باكرًا في المزرعة، لكنها هبّت مسرعة على صوت عمتها تدعوها للنهوض باستعجال.. ليجهزن اليوم لاجتماع النسوة ببيتهم، عمتها (أم زوجها) امرأة خمسينية، ذات حديث حلو ووجه صبوح يجئن النسوة للالتقاء بها، فلها عادة أسبوعية لا تتخلى عنها، لكنها تجد جهدًا إضافيًّا تقوم به من أجل خدمتهن فوق أعباء البيت.. لذا تملّكها ضيق عجيب وهي تستعجلها لتحضير الجلسة..

ـ آه.. القهوة.. تذكرت بائع القهوة الذي يجيء لحيهم بعد الظهر بقليل.. اليوم سيمرّ من هنا كعادته وستبتاع منه دلتين.. كم تحب رائحة القهوة العربية بالهيل..

كانت قد حدّثت عمتها عنه بالأمس، شغلها أمر الإعداد وتحضير وجبة الغداء للأولاد وتنظيف المكان عن سماع صوته بعد الظهر بقليل.. يبدو أنه مرّ من هنا فسمعته عمتها ولهذا حثّتها على استشراف أمره من الباب، فتحت الباب وكان ثمة صبية يلعبون في الفناء الخارجي بالكرات الزجاجية، لفّت وشاحها على نصف وجهها طوليًّا متحاشية مرور أحد الرجال، قالت تنادي الأقرب منهم:

ـ يا ولد يا وديع، هل مرّ بائع دلال القهوة من هنا؟

التفت الصبي وأشار أمامه.. أظنه تجاوز الطريق لطريق أخرى.

حثّته ليلحق به، فجرى الصغير يبحث عن الرجل، لحظات، ثم عاد وقال إنه قادم خلفه، أتى مسرعًا وحيّاها، قالت إنها تريد قهوة جيدة تناسب عزومتهم.

استعرض لها كل ما لديه وأثنى على بضاعته وجودة إنتاجه، وفصل كثيرًا في حديثه عن جودة البن الذي يستخدمه وطريقته المختلفة في تحميصه والفرق بين أنواع البن وأنواع النار، وحدّتها وأثرها على القهوة العربية التي يصنعها وهي تميّز صناعته منذ سنوات..

لم تحب طريقته في الحديث ولا تلصصه في النظر لها خلف الستارة ولم تجد وقتًا لتفصل معه أكثر فأخذت دلة من دلاله ودفعت له ثمنها ثم أخبرته أن يعود ويستلمها في المساء حين يفرغوا من تناولها، وانصرفت عنه لتكمل باقي أعمالها اليومية.. مضى النهار مزدحمًا كالعادة بأعباء البيت والأولاد..

كانت تزيّن خصرها بحزام ابتاعته من أسبوع من السوق المجاور ومعصمها بأسورة أهدتها إياها أمها يوم عرسها.. ولم تكن تدري أن نهارها ستختتمه شهقة مفاجئة.. أقبل يطرق الباب سألها عن الدلال.. مدّت يدها له بالنقود فأمسك بها.. ارتعشت فصرخت، لكن صوتها لم يسعفها بما يكفي، اقترب منها بسرعة، جسّ جسدها الغضّ

وتلمس صدرها واندلقت باقي القهوة من الدلال حين ركلها، قاومته فضمها إليه بعنف صرخت بكل قواها «ابتعد يا فاسق».. خاف من افتضاح أمره، فأفلتها من يده بسرعة واختطف الدلال واختفى كريح عابرة..

انهارت قواها فأوقعتها رجلاها على الأرض، أقبلت عمتها فزعة تستنبئها عن الأمر، فوجدتها شاحبة لا تكاد تتجمع حروفها في جملة واحدة تشير للطريق عبر الباب المفتوح.. بثّت الطمأنينة في نفسها ومسحت على رأسها وضمتها إليها.. بكت بخوف، وأخبرتها بأمره..

ورغم تكرار اغتسالها لتزيل أثره الذي تركه في ذاكرة جسدها.. لكنها لا زالت تشعر أن سوادًا ملأ وجهها.. وأن تلوثًا اجتاح عالمها.. خشيت من عودته (عبد الله زوجها).. من غضبه ونظراته وردة فعله.. فكرت.. هل قالت لعمتها كل شيء.. ربما لم تحسن غير أنه أمسك يدها بشدة يسحبها مع النقود.. رباه سيفضحها خوفها.. وستحكي ما حدث معها حين يستجوبها.. لكن أحدًا لن يغفر لها أو يسامحها.. حتى لو كانت مرغمة..

في المساء حين عاد للمنزل، تعمدت أن لا تكون متواجدة كعادتها رغم أن عمتها طمأنتها وقالت عن ذاك الرجل إنه إبليس مرّ من هنا فلم يجد مبتغاه.. سأل عنها حين تفقدها، سمعت والدته تحدثه بالأمر بصورة عابرة.. خيل إليها أنه كان ثائرًا يرفع عصاه ملوحًا بها ويهدّد بالقتل... الصوت كان بعيدًا عنها، أو أنها من شدة

خوفها انفصلت عن الإصغاء لذبذباته ولم تفهم ما يجري بالداخل. . سمعت سعاله يعلو الدرج المؤدي لغرفتها . . وكدمية من الطين بقيت ساكنة تمامًا . . فالتصقت بزاوية غرفتها والعرق يتصبب منها ودموعها تنهمر من عينيها تتوسل البقاء . . وكان يشغلها هذا السؤال . . ماذا سيفعل حين يقع بصره عليها . ؟!

عيناها تحتضن القارورة المهملة
بجانب لعبة الصغير (حمودي)..
كأنها تلتهمها بشغف لم تخفِه..
وفي ذات الوقت كانت تتنقل
بنظراتها على بواقي اللون
الأحمر للمثلجات المصطبغة
بشفاهي والتي كنت أتناولها
باستمتاع قبل قليل فبقي أثر
منها..

ريق جاف...

كانت تنتصف المكان الفاصل ما بيننا.. يبدو أن خروجها كان باكرًا.. لم تجد بيتًا تدخله من بيوت الحي في هذا الوقت غير بيتنا ذي الباب الموارب.. فالكل يوصد أبوابه في هذا الوقت من النهار طلبًا للأمن والسلام من دخول اللصوص أو مما لا يتوقعون من طوارق النهار الغافل.. أما هي فكانت تجوب زقاقات الحي الرملية بقدميها العريضتين ووجهها الكبير الملوح بوهج الشمس، عيناها تحتضن القارورة المهملة بجانب لعبة الصغير (حمودي).. كأنها تلتهمها بشغف لم تخفِه.. وفي الوقت ذاته كانت تتنقل بنظراتها على بواقي اللون الأحمر للمثلجات المصطبغة بشفاهي والتي كنت أتناولها باستمتاع قبل قليل فبقي أثر منها..

بدا ريقها جافًا وذهنها شاردًا، وشفتيها متيبسة كأنها عالجت العطش مدة طويلة.. كم تمنيتها قبلت دعوتي لمشروب بارد أو حتى انقضّت على نصف القارورة المهملة في الزاوية كما تفعل عادة، تلك التي تركها (حمودي) دون أن يكملها.. لكنها لم تفعل.. نظراتها ظلت متشبثة بها فحسب وهي تدّعي عدم العطش كلما عرضت عليها أمي كأسًا من الماء البارد ليغسل شحوبها..

كذبتها طبعًا، لأني أدرك أن الساعة الحادية عشرة قرب منتصف النهار في جو حارق هي قمة الشعور بالإعياء، وقدماها العاريتان من حذاء تنتعله وتشققات زمن خطته بخطواتها بهما على أراضي الحي وبيوته مؤشر لما أفكر فيه... لطالما عرضت عليها أمي انتعال حذائها أو انتعال حذاء إحدانا إن شاءت.. لكنها تهزّ رأسها شبه رافضة وكأنها اعتادت بصمات قدميها على الأرض حتى تكوّنت طبقة جافة قاسية عازلة من حرارة الرمل وخشنة تمنع ألم الحصى والشوك الذي قد يصادفها إن مشت.. منذ متى هي هكذا.. لطالما تساءلت عن أمرها.. ربما من عمر لم أولد فيه، أو سنة لم نلتفت لها في وجودنا ونحن نكبر ومن حولنا تتغير قواميس الأشياء والناس والبشر وتُعاد صياغة واقعهم كل مرحلة عمرية... لم يخبرنا أحد عنها على وجه الدقة، وجدناها هكذا تمامًا كالوجوه والمساكن وما نعرفه في حياتنا..

أحضرت لها أمي بسكويتًا لتتناوله فهي تحب البسكويتات عادة.. عباءتها مهملة وممزقة بقرب الكتف كأن جمرًا اخترقها من غليون دعتها إليه إحدى الجارات، وثمة بقع من الطين تلتصق بها من جلوسها في أمكنة عدة تستظل بها عن حرارة الشمس، نظراتها غير مستقرة وتقبض بشدة على ما بيديها.. فدائمًا تضمّ حقيبتها المهملة بين صدرها وساعديها، كأنها تخفي فيها شيئًا ثمينًا تخشى ضياعه، ولطالما أثار الأمر حفيظتي ورغبت بمعرفة ما تخفيه داخلها مع أني أدرك أن بداخلها أشياء مهملة، ربما

قطع بسكويت متناثرة وتوافه تحتفظ بها من نساء الحي حين تزورهن دومًا..

استفزاز ما يطلّ من سحب عينيها المنطفئة لكن نهايته لا شيء حقيقي فلا يمكنك أن تفهم منها شيء تخبئه تحت قلبها.. حتى الذكريات ولّت هاربة منها حين نفتش عنها في ساعات الصفاء معها ونحن نلتف حولها في أمسية ودودة تشملها بالهدوء وشبه فهم لما يجري حولها، لكن بلا نتيجة، كأنها دفتر محت أسطره أو اختفت معالم كتابته فبدا في محاولات ضعيفة للقراءة..

جلست على أقرب خدادية فوق الأرض بشكل مهمل.. وتناولت علبة البسكويت من أمي وبدت قرؤيإؤيقشته بلا اهتمام.. أخذها الشرود بعيدًا عنا وأخذنا قريبًا منها نتأمله ونتأملها..

جفاف الحلق وتشقق الشفاه أمر يدعو للرفق في حالتها المؤثرة.. وكلما قرّب منها أحدنا الماء أو العصير أصرّت أنها لا تريده... كنا نتشابك بنظرات مندهشة نطل على مشارف ما يجري والاستغراب يعبئ طقوسنا من الداخل.. فليست هذه عادتها..

بدت قامتها قصيرة ونحيلة للغاية حين وقفت، كانت أقصر وأنحل مما كنت أظنه عنها، كما بدا وجهها شاحبًا ومسمرًا في حرارة القيظ..

لملمت بعض فتات البسكويت الجاف المتناثر حولها وأدخلته في حقيبتها بعفوية كأنها تنظف الفوضى التي

أحدثتها دون قصد.. تركتنا وانصرفت خارجة تحمل باقي مغلف البسكويت بيدها.. لكنها لم تلتفت مطلقًا لقارورة المياه التي أعطيناها لها ولا لمحاولات أمي تذكيرها بها، واختفت في تلاويح هواء الصيف الحارق.. بينما أتحسس ريقي الذي لازال رطبًا وباردًا أثر المثلجات التي كنت تناولتها قبل مجيئها بلحظات..

ليس عليها أن تحتفظ به طويلًا
فلحظة فرح واحدة تجعلها تنسى
هذا السرّ الخطير فتعيد تزيين
خراجها بأشرطة القماش
الحريرية، وعقد من حبات
الرطب الأخضر تصنعه لتزيّن به
عنقها، تدّخر كل هذا «لتقرقع»
معهن في بيوت الجيران
تناصفهم الشهر بقطع الحلوى
الملونة والسكاكر الحلوة والفول
السوداني، وبأهزوجة طرية
لازالت باقية بذاكرتها..

وميض من فرح..

نجوم السماء تغريها فتشرئب ناحيتها بنظراتها المتطلعة، تقايض الوقت وتقطع فتوره انتظارًا لاكتمال البدر.. تتعجل الرقص في طقوس تحتفل بداخلها، وبالقرب ضحكة طفل عابث يطيب الأجواء الساكنة.. «في السماء أفراح كثيرة نحتفل بها، وفيها سبع طبقات متوالية تخبئ فوانيس الليل تحت نجومها حتى لا يطفئها ضوء النهار فتنشر العطر فوق دروبها».. هكذا حدثتهن الجدة حين التففن حولها يسألنها عن أمر هذه الليلة، ابتسمت تخبرهن بأسرار حكمتها، فرحن ينسجن عبر كلماتها قصصًا يسردن تفاصيلها ويبالغن في بهرجتها..

جلسن قبالتها بفرح طفولي، كأنهن عبق يسكبه إكليل الورد على صوت ترانيم ناي يرتل مقطوعات تنشد بسحر حقيقي... أقبلن يتابعنها بشغف والوقت يتعالى كربيع يحكمه الشوق والانتظار، تتقاطر منه أصداء البهجة كمطر يهمي في خضرة الأرض، وكأنهن على موعد سابق معها...

على مهل كانت ترصف خطواتها الواثبة، وطولها المتنامي يساند تحفزها بتطلعات واعدة، المغرب أعلن مآذنه

ولباس الفرح يجمع ذكرياته بشرود طفولة تسري في ذاكرتها تترقب حدوث مفاجأة ما. . تتبعه بنشوة وتصغي لخطوات طفلة صغيرة حافية القدمين تسير داخل ذكرياتها المبعثرة، تقفز داخل أرجائها بمرح عارم، ربما نسيت أن تنتعل حذاءها لكن عينيها تلمع بسعادة كبلورة صافية تزيدها أشعة الشمس بريقًا كلما سقطت سلال ضوئها عليها. . . تجندل حولها رفيقات درب لم تعد الأيام تجمع بينهن بعد أن كنّ يتبارين بطقوس ليلتهن المنشودة. . .

تستلهم وميض الفرح من ماضيها، وتصغي لصوت الناي بداخلها فتشمّ روائح البخور وعطر تضوّعه الليالي الحافلة. . يمكنها أن ترى أشياء كثيرة مرّت بها كحبات أرز مختلفة، وآنية صغيرة تجمعها، وامرأة متلفعة بخمارها تندس في بيوت الحي تطلب أرزًا لتوفي نذرها الذي لا يعرفن ما هو!. . وبشقاوة ما لم تتقصدها تعبث بخمارها لتكشف أمرها. . إنها جارتهم الأرملة القاطنة أواخر البيوت الطينية المتهالكة. . . أتت تحصل على حفنة الأرز كعادة جارية في ليلة «دق الطاسة». تتعرفها هي تمامًا، فتركض بسرعة نحو والدتها لتعلن أنها رأت جارتهم بذاتها رغم أنها تُنكر نفسها وتخفي وجهها، لكنها عرفتها حين اصطدمت بها عبر بُردة الباب الحديدي المتهالك. . تثنيها أمها وتخبرها أن تجعل من يقينها أعمى حتى لا تفضح أمرها. .

ليس عليها أن تحتفظ به طويلًا فلحظة فرح واحدة تجعلها تنسى هذا السر الخطير فتعيد تزيين خراجها بأشرطة القماش الحريرية، وعقد من حبات الرطب الأخضر تصنعه

لتزين به عنقها، تدخر كل هذا «التقرقع» معهن في بيوت الجيران تناصفهم الشهر بقطع الحلوى الملونة والسكاكر الحلوة والفول السوداني، وبأهزوجة طرية لازالت باقية بذاكرتها . .

لا ضير أن تتقافز تلك الليلة حين ينطفئ النهار، تلتقط حبات الأرز المتناثرة هي الأخرى تستعد لحمل خراجها وتُحكم وثاقه . . تتفتل في خاصرة البيت وتجوب بيوت الحي تراوغ رفيقاتها بالخبر الذي امتلكته، تعلنه مرة بمكر ومرة بيقين تقسم عليهن أنه حقيقة رأتها بأم عينيها، وتخفيه باستحضار تنبيهات الكبار وتحذيراتهم من كشف الستر، فالمرأة صاحبة الأرز تصلي في طلب حاجتها، وعلى سرّها أن يختفي كصدى صوت تلاشت ملامحه حين يصل الأرز للمسجد في اليوم التالي وفاء لنذرها، سيأكله الفقراء ويشكروا صنيعها، وتبدأ طقوس الناصفة التي تنتظرها بوله . . تلبس ثوبها وتنفتل مع رفيقاتها حول البيوت كفراشات تناور الظلال . . ستبدو لها هذه البيوت لانهائية ممتدة في درب طويل محكمة الالتصاق بالضوء النافذ كضفيرتها المهملة مربوطة بشريطة بيضاء طويلة تترنح مع حركتها المفرطة . . . .

ناصفة حلاوة

على النبي صلاوة

عطونا الله يعطيكم

بيت مكة يوديكم

يا مكة يا معمورة يا معمورة

يا أم السلاسل والذهب والنورة

الله يخلي أولايداتكم

سالمين غانمين

كبرت وفي كفّها قمر يكتمل تتطلع للعالم من نافذتها التي تركتها مواربة ترسل من جيوبها المفتوحة كل هذا العبق تلتقطه كنجمة شاردة.. تتسلق السنون النافرة في رحلة تحتضن الوميض المندسّ في زوايا ذكريات مشحونة بانفعالات، صاخبة بملامح طفولية بريئة ورمزية لزمن بسيط ولّى ومضى... لكنها لازالت تسرح (وتحجل) بقدميها الصغيرة وبقايا حنّاء مطموس النقش مخفي المعالم يصبغها، تصطدم ببضع فراغات تتيبس فيها الذاكرة عند محطة لا تغادرها بغير أن ترسم ابتسامة توزّعها على جفاف حاصر سنينها... تعاود الركض فتتزاحم أنفاسها مع الفتيات وهن يتقاطرن صوب الفرح، يمررن بهجتهن بين أقدامهن المتحفزة في سباق جاد لقرع بيوت الحي، والصبية يحتفلون معهن فتزداد ملابسهم بياضًا غير معهود ووجوههن نضارة.

يتفتلون في أرجاء الحي ويشعلون شموس فوانيسهم زارافات ووحدانًا. يتنفس الليل أهازيجهم العبقة، ويفيق على فرحة عارمة يحتفلون بها كلما حضرهم موسمه وانتصفت بهم ذكرى طيبة ومولد شريف.

حتى لا تنتهي الكلمات بداخلنا دون أن تتنفس .. حتى لا يضيق الأفق رغم اتساعه في نظرنا .. حتى لا تختنق الضحكات الصغيرة وهي تنتظر فرصة استيقاظها .. فتضيع الهويات التي تشبه رسم أرواحنا، التي نرتكبها كغيوم مليئة بعطر المطر ..

ثمة طقوس نمارسها بوميض من فرح .. وفواصل للشجن تصفع أجنحتها المطر حين نقرر إيقاف الألم .. ونطوف في عالم يضيئ فوانيس الحياة .. يوقض أقواس الفرح الغافي .. يحتضن المطر الذي نحبه .. يمتلك النجوم في السماء .. يأخذنا لحيث الأحبة .. حضن الجدة وبيوت قديمة لأحباب إلتفوا حولنا ذات وقت ، فغرسوا أنس الحياة والأحلام المتخمة بسعادة كبيرة لنقتات منها باقي العمر .. وفنجان قهوة دافئة تغسل برد الشتاء وعوالق أشياء دفعتنا لنسيان ماض سبب لنا الكثير من الحزن .. فلم ننجو منه دون ضريبة دفعها الجسد واعتقلت الروح بتكاليف باهظة ..

وإلى حيث نقرر إيقاف نزف الألم، واستعادة أمتار أغنية قديمة فرت منا هاربة ذات وقت، في مكان
عميقا، حيث منعطفاتها .. في ربكة ريق
بدت مستحيلة .. فجفلت أرواحنا وهي
ما حولها بأشياء صغيرة .. صغيرة جدا ..

